منشورات الاختلاف

393

الدار العربية للعلوم - ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

نسخة منسقة
مجلة الابتسامة

هيفاء بيطار

ضَجيجُ الجَسد

A.M.

www.ibtesama.com

قصص

http://www.maktbtna2211.com/

فريق العمل بقسم تحميل كتب مجانية

شكرا لمن قام بسحب الكتاب
و جزاه الله خيرا

Dr. Ahmed Mady
د. أحمد ماضي
A.M.

ضجيج الجسد

مجموعة قصص

هيفاء بيطار

الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

منشورات الاختلاف

المحتويات

1 - دموع الشيطان 9

2 - قلب فارغ 19

3 - تسكّع 31

4 - ضجيج الجسد 37

5 - أم 45

6 - العاشقة الكونية 53

7 - مجرّد صورة 63

8 - لهاث 73

9 - أبجدية الحب 81

10 - التسوّق الأخير 87

11 - البلهاء 95

12 - فاطمة 105

13 - ناديا 121

14 - المجنون 129

15 - انتصار الجلاّد 145

16 - خمرة الحزن 153
17 - إندو 163
18 - أعاند من أجل الحب 171

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

إلى باسيل الصغير

الذي جعلني أفهم العالم بقلبي

١

دموع الشيطان

لن يستطيع أحد أن يبلغ قاع وحدتي حيث أقبر جريمتي، ولن يعرف أحد أنني سأعيش زماني الأسود مجللاً بالإثم، ينهشني سرطان تأنيب الضمير. أسكن الوحشة، وحشة الفجر تختلف عن وحشة الليل. في الفجر أحسّ بصدمة اليقظة كطعنة في قلبي، أما في الليل فترهقني الظلمات. ودوماً تحرقني الحادثة ذاتها، يوم وضعت الوسادة على وجه فريد النائم وخنقته. تخبّط جسده بقوة ثم وهنت أطرافه وهدأ. استطعت أن أحافظ على مظهري المتوازن، رغم أن كياني من الداخل كان يتداعى، عارفاً سلفاً أنني سأعيش حزناً أسوداً طوال عمري. قتلته وقتلت نفسي معه، لكنه لن يعرف الألم بعد أن فارق الحياة. أما أنا فسأموت كل يوم حتى يتوقّف قلبي عن الخفقان.

أقف أمام المرآة. أحاول ملاحظة التغيرات التي طرأت عليّ بعد الجريمة. يطالعني وجه وسيم يشعّ رقّة. عيناي ازدادتا بريقاً وشروداً. أهمس لنفسي : أنا الشيطان، فمن يرتكب جريمة القتل

سواه؟ لكني أضطر في أحيان أخرى من الاعتراف لنفسي أنني أشبه الملاك حقاً، بتلك الشفافية التي أسكنها، وبذلك الحزن العميق الذي استسلم لهدهدته طوال الوقت.

كان فريد جسد يعبق بالعذاب، ماثل في حياتنا كالقصاص على ذنوب لم نرتكبها. لم يكن من غاية لوجوده سوى أن يسوطنا كل لحظة بسياط الألم. إنه الابن الوحيد لأختي مريم. منذ طفولته المبكرة كان يصاب بنوب اختناق، تزرق شفتاه، وتصبح عيناه بلون الدم. يجنّ جنون أختي، تحمله مع زوجها الذي شتّته الألم إلى المشفى، يقضون أياماً يسهرون عليه، يعودون بعدها إلى حياتهم التي وشمها العذاب. أجمع الأطباء أن مرضه نادر جداً، وبأنه يأتي على هجمات تزداد حدّة حتى تصل إلى مرحلة تنسدّ فيها الرئتين تماماً فيموت المريض، وقد يعيش حتى العشرين وربما أكثر ببضع سنوات.

كانت أختي مريم رقيقة لدرجة لا تتحمّل مشهد قسوة في مسلسل فتبكي تأثّراً، وكثيراً ما كانت تعجز عن متابعة المسلسل. زوجها يماثلها في الرقّة والحنان. تزوّجا بعد قصة حب، ورزقا بعد عامين من زواجهما بفريد أو بالقصاص. انقلبت حياتهما كلياً ودخلا نفق المعاناة اللانهائية. صارت مريم تعيش على حافة العذاب دوماً، فهي تعبد صغيرها وتتألّم لمرضه الذي لا أمل بشفائه منه.

عُطبت مريم منذ صارت أماً، شاخت. لا أتذكّرها إلا متكوّمة بجانب سرير ابنها تُحكم قناع الأوكسجين على وجهه، تمسح

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

راحتيه بقطعة قطن مبلّلة بالكولونيا، تقبّله بنهم كأنها ستشفيه بقبلاتها وتغسل قدميه بدموعها. ما عادت تكحّل عينيها وتعتني بشعرها الكستنائي الطويل، بل تضمّه كيفما اتفق في جديلة تتدلّى على ظهرها المقوّس من ثقل المصيبة. أملت وزوجها أن يكتشف الأطباء دواءً لفريد، لكن مرضه صار يتفاقم مع الوقت، وأدّت نوب الاختناق المتلاحقة التي تصيبه إلى تأذّي أعصابه، فصار عدوانياً، شرساً أشبه بوحش صغير يكسر كل ما تلامسه يداه، يمسح ببرازه الجدران والأثاث، وتداهمه نوب بكاء عنيفة بدون سبب. كنت أتفرّج كل يوم على أختي تجرجر خلفها مأساة حياتها. في السنوات الأولى كان حزنها مبلّلاً بالدموع، في ما بعد جفّ دمعها. صارت تشبه غصناً يابساً ملقى بإهمال على رصيف الحياة. زوجها وجد طريقة للهروب بانغماسه في عمله. طوّع حزنه وجيّر طاقته العظيمة للتفوّق في الدكتوراه في الهندسة. أما مريم فكانت تغرق أكثر فأكثر في ظلمات روحها، مقاومة إحساسها المكابر بالاختناق. كانت مصرّة أن تحتفل كل عام بعيد ميلاده، وحين أتأمّل الصور الكثيرة التي ألتقطها لها مع ابنها حول قالب حلوى كبير ومائدة عامرة بأشهى المأكولات، يستوقفني وجهها الذي شوّهه الألم، رغم أن تقاطيعها هي ذاتها لم تتغيّر... لم تعد ابتسامتها عذبة، بل أشبه بتكشيرة ألم. حين بلغ فريد السابعة من عمره ما عادت شراسته مقبولة، وذات يوم ضرب أمه بمنفضة زجاجية ثقيلة فأصاب عينها اليمين. داخت من قوة الضربة وتشوّش نظرها لدرجة لم تعد تميّز إلا النور القوي. أخبرها طبيب

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

العيون أنها أصيبت بنزف صاعق في العين، وخضعت لعلاج طويل، ثم لعملية جراحية. لكن مريم فقدت الرؤية في عينها، وظلّت تنظر بحب لا محدود لابنها بعينها السليمة الوحيدة.

كنت شاهداً على الأيام المترعة بالألم اللامجدي، والسنوات المتابعة الذاهبة إلى الهباء، وأتساءل تساؤلات طالعة من أعماق روحي: هل من العدل أن يضيع عمر إنسان بهذه الطريقة؟ هل يحقّ لإنسان أن يصادر عمر إنسان آخر؟ هل يحقّ لطفل مريض أن يسمّم حياة أهله؟

من وقت لآخر كنت أرجو أختي أن تتحرّر من عبودية ابنها، أن تقصيه عن حياتها قليلاً، فتمتلئ عيناها بالدموع وتقول: لا تقل هذا الكلام أبداً. فأنا أم.

- لكن، لا فائدة من معاناتك يا مريم، فابنك لن يشفى.

تبتسم بشرود وتقول: أعرف، لكني أحبّه، وأحبّه أكثر لأنه مريض.

- وعمرك يا مريم، وسنوات شبابك، وذلك العذاب المستمر الذي أوهنك، بل صرتُ أخشى أن يقضي عليك.

تتنهّد: لا يهم يا أخي، أفدي فريد بعمري.

- لكن، لماذا لا تلحقيه بمدرسة للمعاقين؟

تقطب مريم وتنظر إليّ بعتب أليم وتقول: إياك أن تقول هذا الكلام. صدّقني، تلك المصحّات سيئة جداً، فهم يضربون المرضى بوحشية.

www.ibtesama.com

تنسيق:علامة تعجب

صارت حياة مريم أشبه باللاحياة. امرأة ملتاعة دوماً، يجرحها نور الشمس، وتنسكب دموعها لمجرّد سماعها أغنية عاطفية رخيصة. كل شيء تداعى في روحها ما عدا صرح حزنها الجبّار الذي كان يتعملق مع الزمن. كانت مريم تهلك ببطء، كيانها يتآكل حتى صارت كقربة جوفاء مسكونة بالكارثة.

لا أعرف متى ولدت بذرة جريمتي، أن أقتل فريد، وأن أحرِّر أختي وزوجها من عذاب طويل طويل. ربما انبثقت تلك الفكرة في ذهني حين رأيت أختي محنية الرأس وصغيرها يشدّ شعرها بوحشية منتزعاً خصلات منه، وهي تحاول تخليص رأسها من يديه. وحين تمكّنت من الإفلات منه رجته ألا يضع كومة الشعر في فمه كي لا يختنق. يومها ولدت في نفسي رغبة أشبه بشهوة لا مجال لردّها، بأن أضربه حتى يموت. عجبت من قسوتي، بل من قسوة البشر المتمثلة فيّ وأظن أن مريم قرأت أفكاري، فاقتربت مني مؤاسية ومسحت على شعري برقّة قائلة: لا ذنب له فهو مريض.

كنت أشعر أنه ما عاد بمقدور مريم أن تفعل أي شيء في حياتها سوى تنظيف نوافذ جروحها كل يوم وتهويتها لاستئناف مسيرة الألم المعتادة. مريم تتسلّى بجرحها، هذا ما أردّده لنفسي دوماً. صارت مرتعبة من إنجاب طفل آخر. ما كان يغظني ويتحدّاني أن الطفل يزداد شراسة وقوة مع الوقت وكأنه قد قرّر أن يميت أمه قبل أن يموت. وحين بلغ العاشرة من عمره كانت مريم تبدو كأنها بلغت عامها المائة من العذاب.

مع الزمن استحوذت عليّ تلك الفكرة الجنونية، أن يموت فريد. كنت أحسّ بصوت يأمرني أن أكون وسيلة القدر وأنهي مهزلة الألم التي طالت. وبدأت أسئلة لا نهاية لها تتناسل في ذهني. ما معنى الجريمة؟ ألا يوجد مبررات للجريمة؟ وهل الوسيلة التي تستهدف إسعاد الآخرين تعدّ جريمة؟! وفريد ما الغاية من وجوده سوى تسميم حياة أسرته؟ وما دور الشيطان في الحياة؟ ألا يمكن أن يكون للشيطان منطق إيجابي لا نفهمه نحن؟ ثم هل أنا مستعدّ أن أحمل وزر الجريمة وحدي؟

تحوّل أختي وزوجها لكائنين انعزاليين، فما عادا يرغبان بالزيارات، ويشعران بالخجل والإحراج من تصرفات ابنهما. صارت مريم تعطي من حولها إحساساً غريباً بأنها غير موجودة. كنت أصاب بالدهشة. فرغم أنني قربها أتحدّث إليها، وأسمعها وألمسها، إلا أني أشعر أنها في مكان آخر، كأنها عبرت من ضفة إلى ضفة. ماتت رغباتها، لم تعد الألوان تعني لها شيئاً، ولا الموضة، هي التي اشتهرت بأناقتها. أحياناً تظلّ بالقميص ذاته أياماً تغسله وتلبسه مراراً. فأسألها: ألا تملّين ثيابك ذاتها؟

فتضحك ضحكة من جرّب كل شيء واكتشف سخف كل هذه الأشياء وتقول:

- أوف، ما بك تنتقدني كثيراً؟

كنت حين أجرّ مريم للحديث عن ذكرياتنا وحياتنا قبل أن تصير أماً، أحسّ بومضات بريق تعبر وجهها، كأنها تشكّ أنها عاشت أياماً هنية... انتظرتُ طويلاً أن يرحم القدر أختي ويموت

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ابنها في إحدى نوب اختناقه، لكن قدراً معاكساً كان يشحذه بالحياة ليغرس مسامير الشقاء في قلب أمه.

كانت مريم تحاول أن تبدو صامدة وتعتقد أنها نجحت بذلك، لكن أعماقها كانت منخورة وهشّة، إحساس قوي بموتها الروحي كان يجعلها تتنهّد تنهّدات عميقة كأنها تريد زفر روحها والتنعّم بالراحة الأبدية. لم تعد أختي قادرة على إكمال حوار مهما كان بسيطاً. كانت تتعب بسرعة فتترك جملها مبتورة ومعلّقة وتنسحب مؤثرة العزلة. متعتها الوحيدة المتبقية لها هي الموسيقى. فقبل أن تغفو تستمع طويلاً لموسيقى عذبة تنطلق من الراديو الصغير الذي تضعه تحت وسادتها.

وفي لحظات مباغتة، كانت تصدر عن يديها وجسدها حركات تدلّ على نفاذ صبر كأنها تطلب النجدة في تحمّل صليب ما عادت تقوى احتماله.

كنت أحبّ فريد كثيراً، أحبّه بقدر ما أكره مرضه، وفي لحظات هدوئه كنت ألاعبه وأقبّله بشغف وأغمره بالهدايا. كانت هداياي تسعده كثيراً وحين أحضرت له القطار الكهربائي الذي يسير على سكة طويلة ويصدر أصواتاً وأضواء ملوّنة، جنّ من الفرح وأهمل كل ألعابه مفضّلاً عليها القطار الكهربائي.

وأخيراً انتصرت فتنة الخطيئة، ووجدت نفسي أسيِّر ذلك الأمر بأن أنهي حياة فريد لأحرِّر حياة أختي وزوجها. حياتي أنا أيضاً، وحياة أمي وأبي وإخوتي الذين كانوا يدورون في فلك الألم. وذات مساء وبينما أختي منهمكة بأعمال المطبخ، تسلّلت

إلى غرفة فريد، قبّلته بحب كبير وتمنّيت له نوماً عميقاً. وضعت الوسادة على وجهه بتصميم وعزم.

وكما تخيّلت تماماً، دفن فريد وسط دموع أمه وأبيه، ودموعي أيضاً. وبدأت مريم ترمّم روحها ببطء. فيما أنا موغل في عذاب جريمتي، كنت أذهب إلى قبره كل يوم، أنبطح على العشب الندي وأبكيه بدموع من نار، وأرجوه أن يسامحني. أناجيه بعذوبة لم أعرفها وأتخيّل أني أسمع صوته. صارت تنتابني نوب عصبية فأضرب نفسي بقسوة وأهمّ بالاعتراف بجريمتي لكني أتراجع لأن اعترافي سيعيد أختي إلى دوّامة الألم.

صرت أجفل مما اقترفته يداي. كم الأغساق البنفسجية الحزينة بكيت حرقة على الصغير. لم أكن قد جرّبت معنى الجريمة من قبل. الجريمة تتركني بحالة ذعر مستمر لأني أعرف أن روحي عطبت عطباً لا شفاء منه - كمرض فريد. الجريمة تحمل عقابها معها لأني أدرك بلوعة أني لن أعود لحالة الطهر الأولية أبداً، أبداً. صرت أعاني من رجفان مستمر في يدي. أعطاني الطبيب مهدئاً ونصحني بالسفر لأدخل البهجة إلى حياتي، لكني اكتشفت أني عاجز عن العيش بعيداً عن قبر فريد. كان يعيش في قبره تحت الأرض، وأنا أعيش في قبر جريمتي. تحوّلت لرجل آخر، يبلبله منظر طفل مع أمه، فأشعر أني حرمت أختي من أمومتها.

بعد أن قتلت الصغير ما عدت أشعر أني قريب من أختي، فالجريمة أقامت حاجزاً بيننا. كنت أزورها وأبالغ في تعاملي الرقيق معها كأني أعتذر لها، لكني أحسّ أنها بعيدة دوماً، فأكتفي

بالوجود في الهالة التي تحيطها. صرت مولعاً بإلقاء الأسئلة وطرح الأفكار التي لا معنى لها. هل كنت أجد في الثرثرة نوعاً من الحماية والأنس والهروب من صقيع العزلة الذي تخلّفه الجريمة؟

لم أعد أعرف طبيعة مشاعري وصار الفرح والحزن يلتبسان لدرجة يصعب عليّ فصلهما. فحين أخبرتني أنها ستسافر إلى دبي مع زوجها، وبأنه وفّق بعقد عمل ممتاز، لم أعرف هل فرحت أم حزنت. وبعد أشهر من سفرها أخبرتني أنها حامل وأنها أجرت فحوصات دقيقة لتتأكّد من سلامة الجنين من أي مرض، ولحسن الحظ فحملها سليم. حين كنت أسمع أخبارها كنت أتظاهر بقلّة الاهتمام، وبأن الحديث عادياً، لكن أعماقي كانت ترتعش كورقة في مهبّ الريح. أصبحت لا أطيق إحساسي بنفسي. فأنا كالقدر أغيّر حياة الناس. مسكين الشيطان إنه لا يطيق نفسه، وأظن من هنا ينبع عذابه. ما عدت أعرف نفسي فأنا الذي اعتدت ألّا أبدو عاطفياً، صرت أعجز عن ابتلاع دموعي.

كنت مؤمناً أنني الشيطان، وأن يداي آثمتان. سكنتني صورة فريد يتخبّط على الفراش وأنا أُحكم الوسادة على وجهه، وصرت أبالغ باستحضار هذه الصورة كي أعاقب نفسي. ثم وجدتني أحمل القطار الكهربائي إلى قبر فريد، وأمدّ السكة البلاستيكية وأترك القطار يسير عليها مُصدراً أصواتاً حلوة يصفّق لها فريد فرحاً. . . كنت ألاحظ نظرات الناس تنظر إليّ بدهشة وشفقة. كنت أعرف أني سأظلّ معذباً بجريمتي حتى أموت، لكن لم أكن أعرف أن الشيطان يملك كل تلك الموهبة في ذرف الدموع!!

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

2

قلب فارغ

حين تسلّمت وفاء وظيفتها الجديدة، أحسّت بالذعر. انفجرت بذرة غضبٍ كامن في روحها سرعان ما سيطرت عليها تماماً. كان عليها أن تعتني بامرأة عجوز ليل نهار مقابل مبلغ من المال يعادل أربعة أضعاف راتبها في ما لو توظّفت بشهادتها الجامعية.

لم تعرف وفاء إن كان منظر العجوز المتداعي قد حرّض فيها كل تلك الكراهية، أم أن السبب إحباطات الحياة المتكرّرة التي أورثتها مشاعر الغضب والكره.

تلاقت عينا الشابة مع عينَي العجوز في نظرة بدت لوفاء لانهائية. نظرة تساؤل صامت ممزوجة بدهشة وترقّب، كأن كلاً منهما تتساءل: من أنت؟ وكيف سيكون شكل العلاقة بيننا؟ أحسّت وفاء بصدمة انتقالها للعيش مع العجوز كصدمة الانتقال من النور إلى الظلام. حاولت ألّا تفكّر إلا بالراتب الذي ستقبضه وهي بأمسّ الحاجة له. لكنها، وهي تعدّ القهوة في المطبخ الأنيق

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

الذي تتعرّف إليه لأول مرة، ذرفت دموع القهر ولعنت زمناً حقيراً يجبر شابة جامعية متفوّقة على العمل كخادمة.

كانت قد أحضرت معها زوّادة من الكتب والمجلات تساعدها في قتل الوقت، لكن طاقة صبرها نفذت قبل مضي ساعتين برفقة العجوز. فقد رافقتها إلى الحمام مرتين، تسندها من ذراعها وتحيط خصرها بيدها الأخرى متحمّلةً مشية النملة، وساعدتها في الجلوس على المرحاض. سمعت صوت بولها فرغبت لو تنفجر قنبلة تفجّر الحمام. بدا لها صوت بول العجوز كسياطٍ تنهال على جسدها بلا رحمة. وحين وصلها صوت العجوز: «انتهيت يا ابنتي». كبتت صرخة غضب وهي تقول لنفسها «ليتها تنتهي حقاً وتموت، أما آن الأوان لتموت؟». لكنها فكّرت وهي ترفع ثياب العجوز أنها ستخسر راتباً كبيراً في ما لو ماتت تلك المستحاثة كما سمّتها. أحسّت بشفقة ممزوجة بالقرف وهي تلامس ذلك الجسد الرخو المتهدّل. شكرتها العجوز وابتسمت لها كاشفةً عن لثة عارية، وكأنها لمحت نظرة الاشمئزاز في عيني الشابة فعلّقت: «لم أحتمل بدلة الأسنان، أحسّ حين أستعملها كأنني أضع حجراً في فمي».

جلست وفاء في الصالون الفسيح تقلّب صفحات مجلة بذهن شارد ومرضوض من عنف الأحاسيس التي حرّضتها العجوز في نفسها. أحسّت بعجزٍ حقيقي وشككت بقدرتها على التحمّل. كيف عساها أن تمضي الوقت مع العجوز، لكن أما عاهدت نفسها أنها مستعدة للعمل في جهنم مقابل المال؟ ألا تؤمن في كل ذرة من

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

كيانها أن لا شيء يذلّ الإنسان سوى الحاجة؟ فلتعتبر نفسها في سجن، وهي فعلاً في سجن أنيق مرفّه مع عجوز، ولديها عطلة أسبوعية يوم الجمعة، ستحاول فيها تنقية روحها من سموم العيش مع عجوز مريضة.

أحسّت وفاء أن روحها مسرحٌ للأحاسيس المتناقضة. فبقدر ما تحسّ نفسها هشةً وعاجزة عن تحمّل أنقاض امرأة تذكّرها بالموت كل لحظة، وتخلق اليأس والإحباط في نفسها من المصير المؤكد للإنسان، شعور العجز هذا توازيه الرغبة في الصمود والتحدي مهما كانت المعاناة كبيرة.

ما كاد يمرّ اليوم الأول في خدمة العجوز حتى كانت الانفعالات الصاخبة قد أنهكت وفاء تماماً. وحين أوت إلى غرفتها الأنيقة المخصصة لها وتمدّدت على السرير العريض، لم تستطع النوم إلا بمساعدة منوّم قوي. لكنها اعترفت قبل أن يستولي عليها النعاس أن العجوز امرأة لطيفة حقاً، علّتها الرئيسية أنها ترغب بالكلام، وقد قرّرت وفاء منذ البداية ألّا تجاريها في الثرثرة. فهي هنا للخدمة فقط، لتساعد المرأة في الاستحمام والمشي، لتحضّر لها طعامها وتطعمها كطفلٍ صغير لأن يديها ترتجفان دوماً، أما الكلام فليس من بنود عملها كخادمة... دفنت وجهها في الوسادة وبكت بقهرٍ وانكسار. إن هذا الزمن ابن الكلب اضطرّها لتعمل خادمة.

أفاقت صباح اليوم الثاني بشعور شامل بالانقباض. أحسّت أنها في سجن حقيقي. رغبت لو تفتح الباب وتفرّ هاربةً ما إن

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

طالعتها ابتسامة العجوز كاشفةً عن لثّة عاريةٍ بنفسجية ومغضِّنة وجهها بطريقةٍ زادت من نفور وفاء. رغبت بصفع ذلك الوجه الذي صار يمثّل لها مأساة حياتها وقهر الزمان لها، ولم تستطع حتى أن ترد على ابتسامة العجوز بابتسامة مجاملة. سألتها المرأة بصوت مرتجف بشدة - فهي تعاني رجفاناً مستمراً: «خير يا ابنتي، ألم تنامي جيداً؟».

وبصوت منقبض أجابت وفاء: «بل نمت جيداً».

جلست بجانب العجوز تلقّمها فطورها وهي ترمق فمها الأدرد الذي يطيّر ذرات الطعام، فتضطرّ وفاء لتمسح فمها باستمرار. ثم أعطتها الدواء ورشّت عطراً على يديها المرتجفتين من داء باركنسون الذي تفاقم معها في السنوات الأخيرة. تأمّلت اليدين المعروقتين المرتعشتين كيف تمسحان الوجه المغضَّن بسعادة، وكيف يزداد رجفانهما كلما اقتربتا من الوجه. أكانت وفاء تفرغ طاقات قهرها من الزمان في تلك العجوز المسكينة تجعلها تستكثر عليها حتى العناية الصحية؟ لم تكن تتخيّل أن الحقد هو رحم الشر. فأية روح شريرة كانت تجعل وفاء تفرغ زجاجات المياه المعدنية المعقّمة الخاصة بالعجوز لتملأها بماء غير معقّم من صنبور الحمام وبأنها تتظاهر بتعقيم الخضار والفاكهة بأقراص التعقيم، أما هي فتكتفي بغسلها كيفما اتفق راميةً أقراص التعقيم في القمامة؟! كيف أمكنها وهي الشابة الرقيقة المثقفة أن تكون قاسية ومنقادة للحقد الأعمى بهذه الطريقة؟!

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

كانت تعيش مع العجوز المسكينة، تلازمها، لكن لا تلقاها بوجهها الإنساني. فهي تحسّ دوماً بالاحتقار لذلك الكائن العاجز المتداعي الذي يتطفّل على عتبة الحياة.

فشلت محاولات العجوز في جرّ وفاء لحديثٍ من أي نوع، حتى أن الشابة لم تتردّد في رشق العجوز بنظرات عدائية موصلةً لها الفكرة التي أرادت الصراخ بها: «أنا هنا للخدم فقط وليس للحديث». كانت وفاء تقضي معظم وقتها على الشرفة تحسد المارة على حريتهم.

مرّ اليوم الثاني بسهولة مقارنةً بيوم الانفعالات الكبرى كما سمّت يومها الأول في الخدمة. استمعت للعجوز تحكي لها قصة حياتها، كيف زوّجها والدها من رجلٍ ثري يكبرها بأربعين عاماً، وكيف أنجبت ولداً واحداً يعيش في أميركا، وكان يزورها كل عامين، لكنه بعد زواجه من أميركية لم يزرها أبداً. سالت دموع العجوز وسقطت على يديها المرتجفتين. مسحت دموعها وهي تقول: «لست بحاجة للمال الذي يرسله لي ابني، أحتاج لأن أضمّه بين ذراعي وأسلّم الأمانة لله».

كانت وفاء تنصت لحديث العجوز بتضجّر وسخرية منغلقةً على نفسها تماماً، إغلاقاً محكماً ليس فيه ثغرةٌ تسمح لكلام العجوز بالنفوذ لقاع عزلة الشابة. كانت وفاء تفكّر أن تلك المرأة محظوظة، يكفيها ثراؤها، فلتنظر لحياة الناس حولها كم يعانون الفقر والقهر.

لكنّ وفاء لم تتوقّع كرم العجوز التي أعطتها راتباً مقدماً.

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

فابتسمت وفاء ممتنة لتلك اللفتة الكريمة لكنها لم تتوقّع أن يكون لابتسامتها ذلك الفعل السحري، إذ طلبت إليها العجوز أن تبتسم أيضاً وأن تطيل ابتسامتها. تأمّلت وفاء العينين الرماديتين الغائرتين بأجفانهما المجعّدة وقد تساقطت أهدابهما. حدّثت نفسها: «هذه المرأة متسوّلة، تتسوّل الابتسامة».

ضحكت وفاء وهي تتذكّر اللقطة التي جمعتها بالعجوز؛ هي تجلس على حافة السرير مقابل العجوز، والأخرى مبهورة بابتسامة الشابة. فكّرت وفاء أن الشيخوخة مضحكة حقاً!

تحسّست وفاء رزمة النقود بحنان، وتأمّلت السعادة الكئيبة التي يعطيها لها المال. صلّت لإله بعيد أن يعطيها القدرة على التحمّل. إنها تحتاج المال كي تتمكّن من السفر إلى الخارج أو لتشتري وظيفة محترمة. أجرت بذهنها عمليات حسابية سريعة؛ راتبان كافيان لدفع إتاوة لتتوظّف في مدرسة، وأربعة رواتب لتُعَيَّن محاسبة، وستة رواتب لتعيَّن رئيسة لجنة شراء في مؤسسة ما.

تفاقم إحساس وفاء بالسجن مع مرور الأيام. كيفما تحرّكت يطالعها وجه العجوز. لكم تكره هذا الوجه الذي يسجنها. صارت تغذّي بنفسها كل ما يدفعها لكره تلك المرأة الطاعنة في السن، وأكثر ما يضايقها رغبة الأخيرة في الكلام. صارت تسلية وفاء الوحيدة قطع سبل الكلام بأجوبتها الجافة المقتضبة واستغراقها في القراءة، ثم بأهم وسيلة لقطع الحوار بين البشر: التلفاز.

لكن العجوز قدّمت لوفاء اقتراحاً جعل الشابة تتجمّد من المفاجأة. فقد زادت راتبها بمقدار الثلث مقابل أن تتحدّث وفاء

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

معها أي حديث، ودفعت لها الزيادة سلفاً. بدت العجوز تفيض سعادةً وهي تتحدّث مع الشابة وتسمع الرد. كانت العجوز تنصت لوفاء بما يشبه الخشوع وتتذوّق كلامها كما لو أنها تتذوّق قطعة حلوى لذيذة.

فوجئت وفاء بأن المرأة التي تخدمها ذكية وذات خبرة حياتية واسعة، لكن أكثر ما يغضبها ارتجاف صوتها. كل شيء في تلك العجوز مهتزّ. يا لبشاعة المرض.

اعتادت وفاء بعد جهد على حياتها الجديدة، يواسيها المال الذي كانت حقيبتها تنتفخ به، ولم تكمل وفاء الشهرين في خدمة العجوز حتى كانت «شحاذة العاطفة» - كما سمّتها وفاء في سرّها - تعرض عليها مضاعفة راتبها مقابل أن تقبّلها الشابة كل صباح وكل مساء. للقبلة ثمن، للابتسام أيضاً! يا للحظ السعيد يا وفاء. وضع القدر في حياتك دجاجةً تبيض ذهباً، كل ما تفعلينه له ثمن!

صارت وفاء تقبّل الوجه المتغضّن بتجاعيد الطيبة كل صباح ومساء، متمنيةً للمرأة يوماً سعيداً وصحةً جيدة. كانت تتفرّج بدهشة على الفرح الحقيقي الذي تمنحه للعجوز.

استطابت وفاء دورها، وانهمكت في تمثيلية الحياة مع العجوز. أما يوم الجمعة فكانت تحسّ أنها خارجة من السجن، إذ تكون العجوز في عهدة إحدى قريباتها اللاتي يقبضن خدماتهنّ سلفاً.

اكتشفت وفاء في نفسها موهبة التمثيل، فصارت تنوّع في أداء ابتساماتها وطريقتها في الكلام. وكانت تتعمّد أن تحدّث العجوز بشكل تَرى نفسها في المرآة الكبيرة في الغرفة. كانت تشعر أنها أمام كاميرا تلاحقها دوماً، ومراراً كانت تعيد الجملة ذاتها وكأنها مخرجاً وهمياً يطلب إليها إعادة اللقطة! ولأول مرة فكّرت وفاء باقتحام عالم التمثيل، وبدت لها تلك الفكرة مغوية لدرجة النشوة. لِمَ لا، فهي جميلة وذكية وحياتها مع العجوز تسمح لها بإجراء الكثير من التمارين لصقل موهبتها.

سألت العجوز ذات يوم: «هل تعتقدين أنني أنجح كممثلة؟».

ولم تتوقّع أن يكون لسؤالها ذلك التأثير الكارثي، إذ بكت العجوز بحرقة وهي ضحية رجفان جسدها المضاعف من الانفعال والمرض. لم تفهم وفاء ردة فعل المرأة. لم تستطع أن تفهم أنها بسؤالها كانت تعتبر أنها لا يمكن أن تحبّ المرأة، وأن كل ما تقوم به هو تمثيل. كان سؤالها إعلاناً صريحاً كسر قلب «شحاذة العاطفة» بأنه لا يوجد قلب قادر على حبّها بصدق!

بعد خمسة أشهر من الخدمة أصيبت العجوز بالتهاب عصبي في رقبتها وكتفيها وصارت تئنّ من الألم ولم تنفع المسكّنات في تسكين آلامها. كان على وفاء أن تتحمّل أنينها وتعطيها الدواء. ورغم تهالك المسكينة من الألم فإنها كانت تطلب من وفاء أن تقول لها جملاً معينة: «سلامة قلبك يا ماما»، «سلامة روحك يا حبيبة القلب»...

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

كانت تطلب من الشابة بصوت أوهنه الألم أن تردّد تلك الكلمات مقابل مال، الكثير من المال.

تنفّذ وفاء طلبات العجوز، وتقبض مالاً، وتصقل موهبتها في التمثيل. بل لم تعد بحاجة للسيناريو الذي تعدّه للعجوز كي تبدأ بدورها. صارت فنانة في ابتزاز العجوز إذ أخذت تُبدع جملاً تكافئها عليها العجوز بسخاء.

خلال ثمانية أشهر جمعت وفاء مبلغاً كبيراً، وصارت تشعر أنها تعيش على خشبة مسرح وأن كاميرا تلاحقها. تراجعت صحة العجوز وأخذت تدخل في نوبات غيبوبة لم يعرف الأطباء سببها الحقيقي. خافت وفاء أن تموت المرأة وبالتالي ينضب نبع المال، صارت تخطّط بشكل عملي لاقتحام عالم التمثيل، وصار حلمها أن تصبح ممثلة يستقطب كيانها.

حاولت العجوز ألا تخيب رجاء وفاء وأن تعيش أكثر. لكن المرض أخذ يهزمها وبدأت تنفق ببطء، ووفاء تحاول جاهدةً إغراقها بالدلال والعطف، بل صارت تقبّلها كل لحظة وتعرب لها عن عواطفها الزائفة كي تحصل على عطاءات العجوز. كانت وفاء تحيا من موت العجوز البطيء.

في أيامها الأخيرة لم تعد المرأة تطلب من وفاء أن تقبّلها وتسمعها الكلام العذب، ولم تعد قادرةً على ابتلاع لقمة من الطعام اللذيذ الذي تطبخه وفاء، بل صارت تُبعد عنها الشابة برفق وتطلب إليها أن تصمت، لعلّها تريد أن تواجه موتها بكرامة وشجاعة. وقد تبلبلت وفاء من موقف المرأة التي صارت أقرب

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لعالم الموت من عالم الحياة.

وبدأ الصوت الناحل للندم يطنّ في أذني الممثلة الموهوبة. صارت تطيل النظر إلى وجه تلك المرأة التي عاشت معها أشهراً دون أن تلتقيها في الحقيقة. أشهر طويلة لازمتها ولم يهمها أن تعرفها، بل كانت تصبّ عليها حقدها على زمن قاس يغتال أحلام الشباب ويسقطهم رغماً عنهم ضحايا أحقاد تسمّم كيانهم.

الآن والتمثيلية توشك على النهاية، والقدر يُخرج اللقطة الأخيرة، تقف وفاء بجانب امرأة تحتضر، امرأة شحذت حبّها وعطفها، وحاولت أن تحرّض بذور الخير والعطف والرأفة في قلب تحجّر من الأحقاد. وحين عجزت صارت تشحذ العاطفة.

لفظت العجوز أنفاسها الأخيرة وحيدةً، لاهثة فوق فراش وحدتها، وعيناها نصف مغمضتين وخط دمعٍ نحيلٍ يسيل على صدغيها متعثراً بالتجاعيد، فيما وفاء تحضّر حساء... وحين سقط نظرها على المرأة، انكسر قلبها فجأة بالحب، وركعت بجانب معلمتها في الحب الحقيقي، التي أفهمتها ألا تكون تاجرة عاطفة.

أمسكت اليد المعروقة وقبّلتها للمرة الأولى بصدق وحب وبلّلتها بدموعها وقالت لها: «أحبك حقاً، يا ماما، يا ماما».

كانت ناراً متأججة تأكل روح وفاء التي أدركت مرتعبة مدة تعفن أعماقها وتصلبها بالحقد الذي ملأ كيانها لسنوات طويلة. ياه، ما أتعس الإنسان غير القادر على الحب وعلى الرأفة! لقد أهدتها تلك المرأة موتها لتعلّمها الحب، وهي لم تقدّم لها سوى

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

عواطف زائفة قبضت ثمنها سلفاً.

ذرفت دموعاً صامتة متألمة لأنها لم تستطع أن توصل عواطفها الحقيقية للمرأة التي ماتت من نقص الحب. وفيما هي جاثية أمام الجسد الضئيل الذي أخذ يبرد ببطء، أحسّت بانسكاب نعمة غامرة عليها. كان قبلها قد بدأ يلين ويدفأ بالحب.

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

3

تسكّع

لم يسبق لها أن تسكّعت في شوارع المدينة فجراً. حوالى الساعة الخامسة فجراً لبست ثيابها، عقصت شعرها دون أن تمشّطه وخرجت من البيت محاذرةً أن تحدث ضوضاء. لم تعد قادرة على أن تظل متربعةً داخل نفسها، فهذا القلق ينهكها ولم تنجح في إيجاد حل له.

لم يكن عمال التنظيفات قد بدأوا عملهم بعد. وحيدة في شوارع مدينة غارقة في النوم، أحسّت أن المشي يساعدها في التحرّر من الدوران حول نفسها. منذ مدة غير بعيدة انتبهت إلى تلك الحقيقة: إنها تدور حول نفسها بلا جدوى ولا تجد حلولاً لشيء. فضيقها يتعاظم، وكآبتها تزداد كثافةً، وفرحها يبهت أكثر فأكثر. داهمها صوت عصافير مهتاجة ونشيطة. تعجّبت أن تملك تلك الكائنات الهشّة كل تلك الهمّة للزقزقة. كان صراخها قلقاً وملحاحاً كأنها تريد تنبيه الناس لأمر خطير. فكّرت أن العصافير كائنات سعيدة بالتأكيد، أما الإنسان في هذا العصر فقد تغيّر

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

مفهومه للفرح فصار يبحث عن المتعة. أعملت تفكيرها في الفروق العديدة بين المتعة والفرح، لكنها سرعان ما تضجّرت من التفكير ولامت نفسها. فقد خرجت للمشي كي لا تفكّر بشيء، كي تجعل قدميها تقودانها وليس عقلها. تسارعت خطواتها وصار إيقاعها منتظماً. في داخلها إنسان متوثّب يريد أن يتحرّر من العزلة والحزن. خوف الإنسان الأكبر العزلة. سحبت نفساً عميقاً لامس قلبها، قلبها الذي لم يختلج منذ زمن بعيد بعاطفة، أو بمجرّد شعور إنساني رقيق. بدت لها تلك الحقيقة مخيفة! لماذا تزداد تحجّراً مع الزمن؟! كانت متأكدة أن تحجّرها رد فعل على تحجّرهم، فهم يزدادون إغراقاً في ذواتهم ويبتعدون عنها، عن غير قصد، ربما. دوماً المبادرة منها، تتصل بأصدقائها مراتٍ عديدة، تجدهم منشغلين بتوافه الحياة اليومية ولا تحسّ بلهفتهم الصادقة للقائها. فكّرت كم صار الناس يستغنون عن بعضهم بسهولة وكل منهم أسير فرديته المنغلقة. على مَن تقع اللائمة يا ترى؟ ما عادت تحسّ البشر روحاً ترغب بلقاء أرواح أخرى، بل صاروا مجرّد أحاديث. الناس مجرد كلام لا ينقطع، ولا يبقى منه شيء... لم تعرف مدى إحساسها بالوحشة إلا حين لمحت صبي الفران أمام الموقد. قدرت أنه لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، تأمّلته بحنان وهي تشعر أنها لم تعد وحيدة في شارع مقفر. تمنّت لو تتبادل معه أي حديث، لكنه كان يوليها ظهره منهمكاً بأقراص العجين. حاولت تخيُّل حياته، شاب في عمر الورود يستيقظ قبل الفجر ليعمل في فرن... الحياة قاسية حقاً، لكن كم

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

هو رائع أن يبدأ اليوم برائحة الخبز الطازج.

وبقلبها المفعم بالحب المكبوت والحزين تمنّت له حياة سعيدة... تابعت سيرها في زقاق شعبي، حاويات القمامة تطوف بمحتوياتها، والشرفات المتلاصقة تبوح بأسرار سكانها. تأمّلت الثياب المنشورة على حبال الغسيل، ألبستها أجساداً بطاقة خيالها، راقت لها تلك التسلية. ثمة حبال غسيل مرصوصة بالألبسة الداخلية المهترئة. أحسّت بقرف، عيب أن تنشر الثياب هكذا. فجأة أثارت فيها هذه الثياب البالية شفقة عارمة على الإنسان الذي أحسّت أنه أكثر الكائنات تعاسة.

خرجت من الزقاق إلى شارع عريض، تأمّلت رتل السيارات المصطفّة على جانبيه. بعد قليل سيخرج أصحابها إلى مشاغلهم، وهي بدورها عليها أن تحكم وضع القناع على وجهها. ترى لماذا لا يتصرّف الناس بعفوية مع بعضهم، لِمَ يشعر كل واحد أن عليه أن يلبس قناعاً ليتعامل مع الآخرين؟ الكل يعرف أن الكل يكذب، ويستمرون في الكذبة! هل يكذب الناس على بعضهم لأنهم يخشون أن يظهروا على حقيقتهم. تذكّرت أنها لزمن طويل كانت طرفاً في تمثيلية الحياة، تشارك بأحاديث كلها كذب، تدّعي أحاسيس لا تحسّها، ومواقف لم تحصل معها. تتبجّح أنها قصدت مطاعم فخمة، لم تطأ عتبتها، واشترت ثياباً فاخرة بينما تكون قد أنفقت ساعات تدور في محلات الألبسة المستعملة. تتململ في سيارات التاكسي التي تصمّ أذنيها بمكبرات الصوت خلف رأس الراكب مباشرةً، بينما هي تقف طويلاً متحملةً ذلّ

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

انتظار الباص... لماذا تكذب؟ لماذا يكذب الناس؟ كم تكون الحياة حقيقية وغنية لو انفتحت القلوب على بعضها.

صارت تشعر أنها تطفح بالكذب، قرفت نفاقها وزهدت حتى من نفسها، وأفاقت ذات يوم وقد امتلكها هوى الحقيقة. قرّرت أن تكون كلماتها، أن تصير كلماتها. في البداية تململت وكادت تنهار، فصرح الكذب في أعماقها سيحدث خلخلة كبيرة حين سينهار. لكنها لم تعد تخشى شيئاً بعد أن تذوّقت كرامة الصدق، وتأمّلت بهاء روحها يعود إليها كما تعود الصحة لمريض. ياه، ما أروع أن يكون الإنسان ذاته. لكنها لم تتوقّع النتائج الكارثية لصدقها، إذ يبدو أن النفوس الصادقة لا مكان لها وسط تجار الكلام، واستنتجت بعد جهد فكري طويل أن الناس يريدون التسلية الرخيصة وليس الصدق. يستمتعون بالاغتياب، يمثّلون أنهم يصدقون كلام بعضهم، وما أن يدير أحدهم ظهره حتى يبدأون الاغتياب. وتستمرّ تمثيلية الحياة.

وصلت حتى السوق المركزية للمدينة. لم تدبّ فيه الحركة بعد، ثمة رجال نائمون على عتبات الدكاكين. استوقفها منظر شاب ينام على حافة شرفة دكان اللحام. عتبة النافذة رخامية لا يزيد طولها عن المتر وقد تقوقع الشاب على نفسه كجنين، وجعل من ساعده وسادة، والذباب يحفّ بقدميه المتّسختين. كان يدير لها ظهره فيما وجهه باتجاه ذبيحة متدلية من خطاف. بين الشاب والحيوان المسلوخ لوح زجاج رقيق. شعرت أنها والشاب يريان نفسيهما في مرآة الحقيقة. ارتعبت من اللقطة الموحية وأحسّت أن

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

الشاب يواجه مصيره، بل إنها هي أيضاً تواجه مصيرها. تمنّت لو أنها تحمل كاميرا لتصوِّر تلك اللقطة. وقفت على بعد خطوات قليلة من الشاب وتعجّبت كيف يغفو وسط روائح العفن وإكليل الذباب. شعرت أن قلبها ينكسر بالحب لذلك المسكين. هناك حب يطفح من القلب كعطر، وحب يجعل القلب ينكسر بتواضع وشفقة على مصير البشر. تابعت سيرها وهي تحسّ أن الله خلقها من الشوق، ففي أعماقها أشواق لامحدودة لأشياء كثيرة مبهمة تعرفها تماماً. ابتسمت وهي تتذكّر كم عاشت أحلاماً تدور حول رجلٍ لم تلتقِ به، وكم كانت الرغبة بالحب الكبير تتآكلها، وهي تلتقي بمسوخ محدودي الإحساس والعاطفة. تساءلت لماذا عاشت سنوات حياتها شاعرةً دوماً أنها على عتبة خلق عظيم أو ولادة جديدة، مرتبكة بزخم أشواقها التي تحسّها توطئة لإلهامٍ إلهي لم يعلن عن نفسه بعد. كانت صورة الشاب الذي يغفو على نافذة اللحام تلاحقها. ياه كم تكره الحياة الوضيعة وكم تعجبها تلك النار المتأجّجة دوماً في أعماقها. إنها تشعر كيف أن قوة أكبر منها تسكنها ولا تعرف إلى أين ستقودها.

بدأت المدينة تستيقظ وخرق الصمت قرقعة محركات السيارات، وصوت سحب واجهات الدكاكين المعدنية. أحسّت بعطش ورغبت بعصير الجزر مع الثلج المبروش. بدا لها يومها كوجهٍ شاحب ليس فيه دفء ولا ودّ. كم من المحزن أن تمرّ الحياة وكلٌّ أسير أناه، كلٌّ متربّع في نفسه، كما اضطرت أن تكون. نظرت في ساعتها وحسبت أن تسكّعها استغرق ساعة.

توقّعت أن تسترخي أعصابها لكن يبدو أن المشي وحده لا يكفي. التفتت يميناً لتجد أن صبيين يفرشان بضاعتهما على رصيف الحياة، عرانيس ذرة وباقات بقدونس وبقلة. كانا مبتسمين بوجناتهما الوردية الطافحة صحة. تعلّقت عيونهما بها، ابتسما لها بمودة صافية. لم تكن تحتاج بضاعتهما، إنما دفء نظرتهما وابتسامتيهما. اشترت معظم بضاعتهما مبتهجةً بالسعادة التي أهدتها لهما عند الصباح. سألتهما إن كانا يذهبان إلى المدرسة فأجابا أنهما تركا الدراسة ليساعدا الأهل، وقالا إن العلم لا يطعم خبزاً في هذه الأيام. حملت كيسين ثقيلين وسارت تفكّر بالصبيين اللذين تركا المدرسة. أحسّت بوخزة ألم حقيقية في قلبها. الحياة صعبة وقاسية أكثر مما تحتمل. وقبل أن تنعطف إلى زقاق بيتها استوقفها متسوّل قذر القدمين يبدأ نهاره بالدعاء الذليل. أعطته الكيسين دون أن تبالي بنظرة الدهشة في عينيه. تابعت سيرها يلحقها دعاؤه لها بالتوفيق والصحة. تابعت سيرها متعبة إنما روحها خفيفة كفراشة. كانت سعيدة أن يومها توشّح بقليل من الدفء الإنساني الآخر بالانقراض.

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

4

ضجيج الجسد

ما أرهب تلك اللحظة التي استسلمت فيها له. كانت لحظة رهيبة ولاهثة حين سمحت بسقوط الستارة التي تخفي ما يفترض أن تخفيه دوماً. آخر فكرة عبرت ذهنها قبل أن تذوب في أحضانه أنها تكبره بعشرين عاماً.

لم يخطر لها يوماً أنها تملك تلك القابلية اللينة والعميقة لإعطاء ذاتها بسخاء، ولم تتوقّع أن تترك نفسها على سجيتها تعوم في ملذّات خدرٍ شهي وهادئ. كانت تشعر أن جسدها متسربل بشهوةٍ فاعلة ودافئة، وأمكن لها وهي تداعب جسده المشدود الفتيّ وعضلاته المتينة أن تسبر أعماق روحها المشقّقة بالحرمان. في الواقع كانت مفتونة بكماله الذكوري الرائع، بشبابه وقوته وعواطفه المثارة، وكانت تتشرّب بعينيها نصف المغمضتين ذلك البهاء الساطع من وجهه، حارقةً آخر شعور حياء يمكن أن تحسّه. فكّرت أن الحياء مطلوب من النساء فقط، ولا يُطلب من الرجال. ولأول مرة تحاول معرفة السبب! ترى ما معنى الحياء؟ ألا يعني

أننا نمنع أنفسنا عما نريد؟ وأقرّت فيما راحتاها تضغطان الجسد الفتيّ بنشوة: إن الحياء هو القيمة الأكثر قمعاً للنساء.

أحسّت أن ذلك الجسد الفتيّ الذي يغطّي جسدها أحرق ذبولها ويأسها وسنوات عمرها الجافة، وأعاد لها أحاسيس اعتقدت أنها ماتت. وحين انفصل جسدها عن جسده كانت لا تزال متوقّدة بذلك اللهب القديم القديم الذي طفر إلى الوجود ثانية.

قبّلته بشغف شاعرة أنها تتجرّع شبابه الدافئ الذي يفيض عافية، وحين ودّعته وهي لا تزال عارية تماماً، أغلقت باب روحها على لذّتها. أشعلت سيجارة وجلست في الظلام تستعيد نشوتها معه، مع شاب في عمر ابنها، وبدا لها جنونها هو قمة الحكمة. عصبت بروحها مشاعر تحدٍّ قوية وهي تتساءل: «لماذا يُبرّر للرجل أن يقيم علاقة مع امرأة تصغره في العمر كثيراً، ولا يسمح للمرأة في المقابل؟ والكهل الذي يستمتع بجسد شابة ماذا يختلف عن امرأة تجاوزت منتصف العمر تريد الاستمتاع بطراوة شاب وقوته؟!».

فكّرت بسخرية أن الناس جميعاً لو عرفوا بعلاقتها بتلميذها لوصفوها بأحقر الصفات. مدّت لهم لسانها هازئة وهي تتخيّلهم يسوطونها بنظرات اللوم والاحتقار. تحسّست جسدها الذي يحمل بصمات عشيقها الشاب. أطفأت سيجارتها وهي تهمس لنفسها بأن الحب مشروع لامرأة وحيدة.

فجأة ومضت بذهنها ذكرى اعتقدت أنها نسيتها. تذكّرت

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الرسالة المؤلفة من خمسة عشرة صفحة التي كتبها لها زوجها قبل أيام من طلاقهما. زوجها الذي جمعتها به علاقة حب طوال دراستهما الجامعية وتكلّل الحب بالزواج ثم سافرا إلى لندن وحصلا على الدكتوراه، وعادا إلى الوطن بعد غربة تسع سنوات، عائلة مثالية مؤلفة من أم وأب مع طفَلين رائعين. لكن رفيق العمر طعنها بخيانته لها، فقد عشق تلميذته التي تصغره بحوالى عشرين عاماً، وفاحت رائحة العلاقة الآثمة في الجامعة والمدينة ولم يستطع الزوج المتيّم أن ينكر غرامه بطالبته، بل إنه طالب زوجته أن تساعده على مواجهته.

تذكّرت انفعالها الهائل وقتها. كانت تصرخ وتغلي من الغضب وهي تشتمه بأحقر الصفات فيما هو في عالمٍ آخر، صريع هوى قاتل لا تجدي كل الحجج والتهديدات والترغيبات في شفائه منه. الآن تستطيع أن تفهم ماذا يعتمل في قلب الزوج الذي أصابته حمى الحب. المسكين حاول مراراً إنهاء علاقته مع طالبته، فكان يجبر نفسه ألا يلقاها لأيام، لكنه يعود لها ذليلاً منصاعاً لهواه. وكم مرة تعرّض لسخرية الطلاب وتعليقاتهم وهو يبحث عن حبيبته في مقصف الجامعة أو مكتبتها.

يومها تصرّفت كامرأة تضع كرامتها فوق أي اعتبار وأصرّت على الطلاق، رغم رجاء زوجها أن تصبر عليه عساه يتخلّص من هذا الهوى الجارف. وكم كانت تحتقر منطقه وتصفه بالأنانية والتخلّف. تمّ الطلاق وعاشت سنوات طويلة بعد طلاقها تحمل خيانته لها كأنها تحمل عبئاً مخيفاً تكرهه ولا تستطيع التخلص منه.

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

ثورة الانفعالات القاتلة التي أورثتها إياها خيانة زوجها جعلتها تخشى العاطفة، وأول علاقة خاضتها بعد فشل زواجها كانت بهدف الانتقام من الزوج الخائن، أكثر مما هي بسبب الحب. كانت في منتصف عقدها الثالث، وعشيقها الذي عرفته بعد زوجها في منتصف عقده الخامس، ولم تقدّم لها علاقتها معه أي إشباع عاطفي أو جنسي ومع ذلك استمرّت معه عامين مراكمةً خيباتها العاطفية والجنسية معه. كانت تخجل أن تصارحه بأفكارها، وبأن ضعفه الجنسي يسبّب لها الاكتئاب والخيبة.

تتساءل الآن وهي مشبعة الحواس، منتشية بوصالها مع العشيق الشاب: «ما الذي يدفع النساء للتحمّل؟» يا للغرابة، كانت تعتقد أن المرأة تضطرّ لتحمّل الزوج، أما العشيق فما الذي يدفعها لتحمله؟ هل تُربّى المرأة لترضى دائماً بالقليل؟!

قامت تحضّر زجاجة بيرة مثلجة، منتبهةً لما يعتمل بداخلها من مشاعر جديدة وغريبة. استيقظت للمرة الأولى في أعماقها رغبة بالتحوّل، وفكّرت بأنها لم تكن معتادة على الانتباه لما يجري في داخلها. فرغم كونها أستاذة جامعية ناجحة وامرأة حرّة وثرية تسافر كثيراً وتشارك بمؤتمرات، ولها حضورها المميز، فإن التربية التي أورثتها قيماً وعقداً من الصعب التخلّص منها، جعلتها تجاهد ضد كل هوى. وكانت مستعدّة حقاً أن يمضي عمرها بتلك الطريقة لولا ذلك الشاب الذي كان يذكّرها في كل مرة يدخل مكتبها في الجامعة بأنها أنثى تحتاج لرجل تذوب في أحضانه.

كانت تحتار حقاً من ذلك المناخ الثقيل الذي يولد بينهما،

تنسيق:علامة تعجب
www.ibtesama.com

مناخ يجعل القلب رقيقاً جداً، وحسّاساً لكل حركة داخلية، تحسّ في حضرته أن حواسها تصبح صاحية إلى أبعد الحدود. لكن لم يخطر ببالها أن ما بينهما سيتطوّر إلى علاقة غرامية. وما كان لها أن تعرف أن الشاب يحبّها لولا شروده وهي تلقي محاضراتها، لأنه طوال الدرس يحدّق بها بعينين واسعتين شاردتين، فتسأله بالمودة الرؤوفة التي تسأل بها أم ابنها: «ما بالك شارداً؟».

فيتنهّد وهو يجيب: «لست بشاردٍ».

كانت معتادة على إعجاب طلابها بها، وتسعدها تعليقاتهم بأنها تملك شخصية آسرة، بل إن الكثير من طلابها كانوا يستشيرونها في مشاكلهم العاطفية، وكانت تحب أن ترافق طلابها من وقت لآخر إلى مطعم أو سينما. لم تشتبه بعواطف طالبها المتيّم إلا حين طرق باب مكتبها ذات يوم وقدّم لها لوحة رديئة تمثّل وجهها، قال بأنه قضى أسبوعين في رسمها معتمداً على صورتها المحفورة في خياله. لاحظت احمرار أذنيه الشديد وتعرُّق راحتيه اللتين كان يمسحهما ببنطاله، وحين سألته ما مناسبة هذه الهدية لمحت حزناً عميقاً في عينيه وهو يقول: «أجمل الهدايا هي التي تقدَّم بلا مناسبةٍ».

همّت أن تقول له بسخرية بأنها تحب الهدايا التي تقدَّم بمناسبات، لكنها وجدت نفسها تقترب منه وتربت على خدّه الملتهب. أمسك يدها وقبّلها قبلة طويلة، كانت تتفرّج كغريبة على ذلك المشهد المثير بين التلميذ وأستاذته.

في تلك الليلة تذكّرت فيلم «نار اللوعةٍ» لممثلتها المفضّلة

آني جيراردو. الفيلم يحكي عن علاقة أستاذة بتلميذها. كم أدانت تلك العلاقة وقتها، لكنها بعد أن تحرّكت مشاعرها الراكدة بقبلة العاشق وجدت ألف مبرّر لتلك العلاقة.

عادت ذاكرتها تستعرض أمامها الرسالة المؤلفة من خمسة عشرة صفحة والتي أرسلها لها زوجها. كان الزوج المبتلي بهوى تلميذته يشرح لها ما يعتمل في نفسه، وبأنه أسير شعور حارق وطاغٍ ولا مجال لردّه، كالمرض، جعله يفقد توازنه كلما اجتمع بطالبته، ويرجوها أن تساعده وتقف إلى جانبه.

ساعدتها البيرة في تعميق نشوتها، وفي طرح أسئلة أكثر عمقاً؛ ترى ما غاية الحياة؟ أهي في إرضاء صوت العقل أم صوت القلب، ولماذا يصورون للمرأة أن صوت العقل مخالف لصوت القلب؟ تذكّرت يوم قرّر أخوها وهو في الأربعين أن يتزوّج من امرأة في السابعة والثلاثين، كيف جنّ جنون أسرتها وقالوا بأن اختياره خاطئ، وبأنه يستطيع أن يتزوّج ابنة العشرين؟!

كانت عواطفها المحتفية باستفاقة الجسد من سباته الطويل قد أحرقت آخر شعور بالذنب لديها. ضجّ المكان باعترافها الصريح بأنها كانت سعيدة ومنتشية في أحضان الشاب، وبأنها انتشت تحديداً بذلك البهاء الساطع من وجهه، وقارنته بوجه الرجل الذي كانت ستتزوّجه. كان في الستين، وقد احتفر وجهه بالتجاعيد، وحين كان يقبّلها كانت تغمض عينيها كي لا ترى بشاعة وجهه المتهدّل موهمةً إياه أنها منتشية. ياه كم تحسّ بالنشوة وهي تستعيد جسد العشيق الذي يفيض حيويةً وشباباً.

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

استلقت على الأريكة شبه مخدّرة من فعل الحب والكحول معاً. فكّرت أنه يحق لها أن ترضي قلبها وتعيش أيامها سعيدة، أما عقلها فستعرف لاحقاً كيف سترضيه. فجأةً اعتدلت في جلستها لتصحّح ما فكّرت به، وأكّدت لنفسها بأن ليس عقلها الذي لا تعرف كيف ترضيه بل عقلهم.

5

أم

يدهشني هذا الحزن الذي يطفو إلى السطح حين أكون وحدي. أين يختبئ؟ هل تتّسع تجاويف روحي لكل هذا الحزن؟ صرت لا أعرف كيف أتخلّص منه فهو يملك قدرة رهيبة على التسلّل. ورغم أنني أبدو دوماً بحالة مرح ظاهر وأتلقّى بانتصار نظرات الحسد والغيرة بسبب حيويتي وعفويتي غير المخرّبتين، إلا أنني أعرف أن هذا الحزن قد نخرني عميقاً تاركاً سطحي سليماً. أمّا أعماقي فقد حفر فيها أثلاماً كتلك التي يتركها الدود في الخشب.

لأعترف أن الحقد قد استبدّ بنفسي استبداداً قوياً، حقد لشدّة قدمه أحسّه ولد معي. تحاصرني دوماً الذكريات ذاتها والأفكار نفسها. ذكريات أحسّ بطعمها المهين، المُنتهك لكرامتي. ذكريات تدفعني لأن أبصق اشمئزازاً كأني متّسخة، وفي لحظات تبلغ حدّتها لدرجة أتمناها لو تكون كائناً حياً لأطعنه بسكين.

لكني كنت مصرّة أن أكون سعيدة وقوية، ليس لأنني أكره

الهزيمة وأحتقر الضعف وليس لرغبتي بالموت واقفة، ووهب حياتي في سبيل فكرة أؤمن بها. كنت أعرف أن كل حماستي للانتصار على تلك المرحلة المهينة من حياتي كان لأجلها، لأجل طفلة تتركني دوماً بحالة وجد، فأشتاقها حين تنام، وأجلس على طرف سريرها أنصت لأنفاسها الخافتة، أقرّب وجهي من وجهها بحذر شديد لأشعر بهالة الدفء حول وجهها. لم تكن لينا مجرد ابنتي الوحيدة، كانت صورة الله التي تحثّني لبلوغ الكمال. كنت أريد أن أهديها أماً، وكنت مؤمنة أن الأم هي الأكثر قرباً وشبهاً بالخالق.

أذكر تلك السنوات الضبابية البعيدة يوم كانت حياتي فاسدة بسبب الحياة الباهتة السخيفة التي كنت أعيشها، بسبب ساعات الفراغ الطويلة التي لا أسمع فيها سوى دوي صراعات خرساء في أعماقي. تلك السنوات التي كنت عاجزة فيها عن كبح جماح غضبي الأعمى تجاه والدها، وتجاه حفنة من البشر الوضيعين الذين كانت غايتهم تحطيمي لأسباب لا أعرفها. ربما لأن نقائي الداخلي الذي لم أكن لمسته بعد كان يتحدّاهم بطريقة خفية، فأرادوا تشويهي لأصير أشبههم... تستهويني صوري في تلك المرحلة، ورغم أني كنت أكثر شباباً إلا أن ملامح وجهي كانت مخرّبة بالحقد، قسماتي متشنّجة دوماً، لأن خيالاتي التي تدور كلها حول رغبتي بالانتقام تنهكني.

لسنوات طوال ظلّت الأفكار ذاتها لا تبرح خيالي مهتاجة دوماً من هذا الصراع الطويل مع أعداء أريد سحقهم كحشرة. لكن

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

حتى وأنا في أوج غضبي، كنت ألاحظ بعظيم الدهشة ذلك التبدّل التام والعميق لأحاسيسي وأفكاري حين أمسك يد لينا. كنت أشبه بركاناً يشتعل حقداً وغيظاً، لا أنفك أرسم خططاً للانتقام وأحسّ بالنشوة الذهنية، وخيالي يصوّرني دوماً منتصرة.

كنت أمرّ كل يوم ظهراً إلى المدرسة الابتدائية لأصطحب لينا إلى البيت، ووسط حشد الأطفال الذين يلبسون لباساً موحداً كنت أميّزها قبل أن أراها. وما أن تلمحني حتى تهرع إليّ راكضة بقوة الشوق للماما التي تعني لها حضن العالم الدافئ، غير مبالية بثقل حقيبتها المدرسية المترجرجة على ظهرها. أحسّ بطعم العسل وأنا أقبّل خدّيها الساخنين الطريين. أجبرها أن تعطيني حقيبتها لأحملها، تقول لي بتهذيب: أنها لا تزعجني يا ماما.

أحسّ بنشوة من كلمة ماما. يفارقني حقدي بتلك الكلمة السحرية. أطلب منها أن تقول ماما مراراً فتضحك متسائلة عن السبب. أرجوها: هكذا أحب يا لينا... تردّد بصوت ندي: ماما، ماما، فأشعر أني محتواة في نفق من النور الوردي. أحس بطمأنينتها وهي تمسك يدي، أحثّها على الكلام، فتخبرني أنها حصلت على 10 من 10 في الإملاء والحساب. أنحني لأقبّل رأسها ويدها وأقول بحماسة: برافو. تسمعني النشيد الجديد الذي حفظته فأتعلّمه بسرعة وأنشده معها. ذات يوم كان النشيد عن البابا، فلم أستطع أن أردّد معها كلمة واحدة. كنت أعرف أن صوتي سيكون منافقاً لو حاولت أن أغنّي مع طفلة ليس لها أب. لأنه فضّل عليها الدولار، هجر ابنته مفضّلاً بلاداً بعيدة تعده

بالثراء.

أحسّ حين أمسك يد لينا كيف تتبدّل أحاسيسي وتترسّب بهدوء في أعماق روحي. أصبح ليّنة وأمتلئ رقّة وحناناً. أؤكد لنفسي أن لينا وحدها مخلّصي.

أسعد لحظات يومي حين نتناول الغداء معاً. أتفرّج عليها كيف تأكل بشهية ثم تقول لي دايمة. فأردّ: ألف صحة، ثم تسرع إلى التلفاز لتتفرج على أفلام كرتون. ألحقها، أجلس على الأرض أفك رباط حذائها وأنزع جوربيها الرطبين. أمسك قدميها وأقبّلهما. أرغب أن أغسلهما بدموعي، ليس بسبب حبي الشديد لها، بل لأن بي شوقاً عظيماً إلى الشفاء من أحقادي. لكني أعرف أني عاجزة عن ذلك. كنت محمولة رغماً عني للاستسلام للحقد.

حين تغفو لينا مساءً أتأمل الملاك النائم. كل مساء أتجاهل طعنة ألم في قلبي أنها بلا أب، كنت أتمناه لو يكون ميتاً، فهذا أفضل من أن يكون لها أب هجرها منذ سنوات. وفي لحظات يأسي القاسية لم يكن من معين لي سوى الجلوس لساعات قرب سرير لينا أحدّق إليها دون أن يرمش لي جفن. فأحس كيف أقوى، وكيف يبدأ نسغ الأمل بدغدغة شراييني اليابسة. كنت أحاول ألا أتحدث عن والدها بسوء، لكني كنت دوماً - رغماً عني - أصطنع لهجة السخرية حين نضطرّ لذكره فتحوّل لينا نظرها عني وتلزم الصمت. كم أكره نفسي حين أسبّب لها الألم. لم أكن أعرف أن الطفولة لا تعرف الحقد، ولا تعرف كيف ترد على كلام مسموم.

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

أعمل المستحيل لاسترضائها فتستجيب لمحاولاتي وهي تنظر إليّ نظرة كلها رجاء وأمل. لينا تشعر أن أعماقي متعكّرة بالأحقاد، تريد أن تنقذني لكنها لا تعرف كيف؟

تنبثق فجأة لقطات بعيدة عن ذاكرتي، كنت أعتقد أنني نجحت في دفنها. ذات يوم بعيد كان قد طفح بي الكيل من إهمال والدها لها ولامبالاته بابنته لسنوات، وجدتني عاجزة عن كبح جماح غضبي، فانهلت عليه شتائم وتسفيهاً. فما كان من لينا إلا أن رمت الكعكة التي تقضمها أرضاً وصرخت متألّمة ودموعها تترك بقعاً كبيرة على كنزتها الحمراء: كفى، كفى. ما ذنبي أنا؟ ما ذنبي أنا؟ لماذا أتيتم بي إلى الحياة! وركضت إلى سريرها تدفن وجهها في الوسادة باكية.

لم أتوقّع سماع هذا الكلام الذي جمّدني وأشعرني كم هويت في درك أحقادي. تمنّيت لو أعذّب أكثر وأكثر كي أكفّر عن ذنبي. وحين لحقتها لأعتذر لها منعتني من الاقتراب منها وصرخت: لا أريد أن أسمع صوتك. كانت تبكي وجسدها كله يختلج.

صار كل شيء حولي متجهماً غارقاً في الأسى. لم أعد قادرة على تحمّل دموع طفلة لا ذنب لها في صراع الكبار. أردت بأية طريقة أن تعود الضحكة للينا. وجدتني أتصل بصديقتيها المفضلتين، ألححت عليهما أن تأتيا، وركضت في الشارع غير مبالية بنظرات الناس المندهشة من منظر امرأة تركض بكل جموح روحها لتشتري قالب حلوى، حتى أن أحد المارة اعترض طريقي

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

وعرض عليّ مساعدته. اشتريت قالب كاتو، ودمى صغيرة وبالونات وأسرعت إلى لينا التي كفّت عن البكاء لكنها ظلّت متكوّمة في سريرها. ومن خارج الغرفة، شاعرة أني مطرودة من جنة طفولتها، همست لها بصوت خافت كي لا يؤذيها صوتي: لينا، بعد قليل ستأتي صديقتاك، وثمة مفاجأة في الصالون. أسعدني أنها لم تجب. إنها تتقبّل صوتي إذاً. شجّعني سكوتها على الدخول إلى الغرفة ففتحت خزانتها وأخرجت فستانها الوردي المزيّن بشرائط، وجوربها الأبيض المطرّز بخيوط فضية والذي تخبئه للمناسبات السعيدة. قلت لها بالصوت الهامس ذاته محاذرة أن أخدشها: هيا يا لينا، قومي اغسلي وجهك والبسي ثوبك الوردي. كنت أختلس النظر إليها منتظرة بشوق عظيم لحظة تصفح عني وتسمح لي بتقبيلها. ظلّت لينا متكوّمة في السرير، دافنة وجهها في الوسادة. عرفت أن أكبر عذاب لي حين لا أتمكّن من رؤية وجه ابنتي. عدت إلى مكاني كمعاقبة ووقفت عند باب الغرفة. غطّيت عيني المتورمتين بكفي وقلت لها: سوف أحكي لك قصة يا لينا هل تسمحين؟ لم تجب فابتدأت أبوح لها بمكنونات نفسي.

ومن دون تصميم مسبق تدفّق مني الكلام بصوت هامس: في قديم الزمان يا لينا الحبيبة كانت هناك شابة جميلة أصيبت بمرض خطير أفقدها نظرها، وكان والدها رجلاً ثرياً جداً، فاستدعى أشهر الأطباء لعلاج ابنته لكنهم لم ينجحوا. ومن شدّة حزنه لجأ إلى السحرة، فعجزوا أيضاً. فنذر نذوراً كثيرة للآلهة، لكن الصبية الحلوة ظلت عمياء. إلى أن تسلّلت ذات يوم إلى القصر فتاة

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

صغيرة تحمل كيساً صغيراً وقالت أنها تحمل فيه المادة التي تشفي الصبية. أراد الحرس ردّها، لكن الأب المنكوب سمح لها بالدخول. وسألها عمّا في الكيس فقالت كعكة الحب. تأمّل الأب الكعكة فوجدها عادية، فسخر من الطفلة وقال: أرى أنها كعكة عادية، فهل هذه ستشفي ابنتي؟ قالت: أجل، لأنها مصنوعة من الدقيق ودموع أم، بدلاً من الحليب.

دهش الأب وتساءل: دموع أم؟

ردّت الطفلة: أجل دموع أم نادمة.

اختنق صوتي، لكني أكملت القصة بمشقة: فلما أكلت الصبية الكعكة عاد لها نظرها. كنت لا أزال واقفة على عتبة الغفران، أنتظر سماع كلمة من لينا. في تلك اللحظة عرفت أني عبرت من ضفة إلى ضفة، وأني رميت أحقادي جانباً كي أرمي قميصاً عتيقاً.

- ماما. هل قالت تلك الكلمة أم أنه خيّل إليّ أنها قالتها، لأننا خلال ومضة كنا نحتضن بعضنا، والابتسامة تشرق على وجهينا. رجوتها أن تغفر لي فأمرتني أن أغسل عيني أنا أيضاً. ساعدتها في ارتداء ملابسها، وتظاهرت أني أعترض على شرائط شعرها الوردية وبأنني أفضّل البيضاء لرغبتي في إطالة الحديث معها. رنّ الجرس فأسرعت لينا تفتح الباب لصديقتيها. سألت إحدى الصديقتين: لكن ما المناسبة يا لينا، فاليوم ليس عيد ميلادك؟

قالت لينا: أعرف، لكن الماما أرادت ذلك.

اتّجهت إليّ الأنظار مستطلعة. ضحكت مدارية اصطخاب مشاعري قائلة: أجمل الأشياء تلك التي تحدث بلا مناسبة.

لم أشأ أن أثقل على عالم الطفولة السعيدة. تركتهن يلعبن ويرقصن. جلست على سرير لينا أطوي ثيابها وأشمّ رائحة الطهر فيها. قبّلت وسادتها المندّاة بدموعها، دموعها بمثابة معمودية الندم. كنت أشعر بانحلال عقدة شديدة التشابك في نفسي. ثمة شعور جديد أشبه بنسيم عليل كان يدغدني، لم أتبيّنه جيداً. فجأة انتصبت واقفة. إنه الرأفة. لقد سقطت حراشف الحقد عن جسدي وأقمت في نور الرأفة. علا صوت لينا تسحبني من إغراقي بذاتي: ماما، ماما، تعالي اقطعي قالب الكاتو. لم أرد متظاهرة أنني لم أسمع، كنت أحتاج أن ترسخني في دنيا النقاء والطهر. علا صوتها أقوى: ماما، ماما، ماما...

فهرعت نحوها يسبقني قلبي.

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

6

العاشقة الكونية

دسّت قدميها في الحذاء الرياضي شاعرة أنها تعتليه، عقصت شعرها، دسّت نقوداً في جيب بنطالها، ومفتاح شقتها الريفية في جيب قميصها. وآخر ما حملته مسجلتها الصغيرة - الوكمان - مع شريط فيروز.. ابتسمت وهي تفكّر كم طرأت تغيّرات على حياتها وهي على أعتاب الأربعين. هذه السن أشبه بإنذار الخطر - إنها كالذروة التي يبدأ بعدها الانحدار. تنبّهت أنها لم تمارس أي نوع من أنواع الرياضة طوال حياتها، ربما لأنها كانت راضية عن جسدها الرشيق. لكنها وهي في سن الأربعين بدأت ترتعب من فكرة أنها تغادر ألق الشباب تدريجياً، وأن عضلاتها بدأت ترتخي. صارت صُوَر كهول مترهّلين تلاحقها دوماً في تحركاتها. لذا قرّرت بعزم أن تمارس رياضة المشي كل يوم. في البداية لم تجد أية متعة في هذه الرياضة، واستغربت كيف يعود الناس منشرحين، متجدّدي الحيوية بعد المشي. كانت تعود لاهثة من التعب، شاعرة أن مخطّط يومها اختلّ، لكنها لم تشأ أن تنهزم.

وجدت الحلّ بأن تصطحب معها أغانيها المفضّلة في رحلة المشي اليومية.

أحسّت أنها امرأة جديدة بثياب الرياضة، والحذاء الرياضي الذي تمشي به متنطّطة. في الواقع لم يكن إحساسها بأنها متجدّدة بسبب الرياضة، بل لسبب أعمق وأهم. إنها عاشقة، لم تحبّ رجلاً بتلك الحماسة والحيوية كما هي الآن.

ابتسمت مستمتعة بذلك الهوى الذي يجعلها دوماً في حالة نشوة خفيفة كتلك التي يخلقها الكحول. تشعر جسدها ليّناً، مسترخياً بسعادة كون له شريك. حدثت نفسها أنها لأول مرة تحبّ رجلاً مشهوراً. كما تحسّ بمتعة وهي ترى صوره في الجرائد والتلفاز. لا يمكنها أن تنسى يوم شاهدته في حوار تلفزيوني طويل، كيف كان وجهها متوهّجاً بالخجل والإثارة معاً، وهي تعي أن ذلك الرجل عالمي الشهرة هو نفسه الحبيب الذي يجمعها به سرير واحد. كانت تتابع كلامه الذكي وتتأمّل ربطة عنقه الأنيقة فيما خيالها يصوِّر لها بجانب شاشة التلفاز صور وصالهما المحموم.

مشت في الطريق الجبلية الصاعدة بنشاط شاعرة بالدفء يغزو جسدها. كل شيء حولها يحرّض أشواقها للرجل الذي تعبده. جميل أن تعشق رجلاً عالمي الشهرة، وأن تكون محبوبة بطريقة استثنائية... حقاً هذا الحب يزداد تأجّجاً مع الزمن ومع البعد. كم آلمها البعد في البداية. بينهما بلاد ومحيطات، لكن الحب يتجاوز كل العقبات... لم تكن قادرة أن تتخلّى عن

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

مسؤولياتها وتعيش معه.

هو كان ملتزماً بقضايا كبرى وهبها حياته، لكنها كانت سعيدة حتى الإشباع بذلك الحب الراقي المترفّع عن تفاهة الحياة اليومية، والساخر من الروتين. كانا يلتقيان لقاءات مبرمجة ومتّفقاً عليها في عواصم مختلفة، وفي مناطق جبلية ساحرة، وكانت تمطره برسائل عذبة تحوّلت لأحد أهم مقومات هذا الحب الذي يزيده البُعد تأجّجاً.

الشمس لا تزال عالية، قرص برتقالي كبير تتعلّق به عيناها وتدمعان وجداً. . . فيروز تهمس بأذنيها «حبيبتك بالصيف، حبيتك بالشتي». الوادي الفسيح يبدو ناعساً متلذّذاً بأشعة الشمس وقد تخلّت عن غضبها، والجبال البعيدة شامخة بكبرياء، مترفّعة عن حياة مخلوقات تدبّ على الأرض. . . لماذا تشعر دوماً أن قمم الجبال تناديها؟ وعت تلك الحقيقة منذ طفولتها حين شاركت في رحلة مدرسية. وطوال الوقت كان نظرها معلّقاً بقمم الجبال، ومشاعر جيّاشة غامضة تمور داخلها. ما الذي يغويها في القمم؟! في تلك الرحلة قرّعتها مدرّستها لأنها لا تلعب مع رفاقها، بل نظرها معلّق بالجبال.

تنشّقت بعمق رائحة الطبيعة وأحسّت كيف تتجدّد بشرة وجهها منتعشة بالهواء الجبلي. فكّرت أنها كتبت له مراراً عن سحر تلك القرية المرتفعة أكثر من ألف متر عن سطح البحر، وبأنه وعدها مرات أن يزورها ذات يوم، ويمشيان في الطرقات التي وصفتها له بعين شاعرة وقلب عاشقة. انحنت لتقطف بعض

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الأعشاب البرية وتعصرها بين أصابعها ثم تشمّها بعمق. قبّلت أصابعها المنداة بالعبق شاعرة أنها تقبّله من شفتيه. وحين انعطفت إلى اليمين لمحت عاشقين متلاصقين محتميين بشجرة سرو عملاقة. تجاهلت وخزة ألم أحسّتها، وحاولت الاحتماء بصوت فيروز وبشمس وحيدة مثلها.

لكنها فجأة هوت في قاع يأس بلا قرار، يأس باغتها كطعنة غدر، وهاجمتها أفكار تحاول دوماً طمسها بأن هذا الحب الذي تحسّه يعيش في أغلفة الرسائل أكثر مما يعيش تحت سقف واحد. بدت لها تلك الحقيقة تهزمها في تلك اللحظة وهي تسمع أنين نشوة العاشقين. توقّفت فجأة عن المشي لأنها لمحت زهرة صغيرة محنية الرأس، محاصرة بأعشاب كثيفة. لمست الزهرة بحنان وهمست لروحها هذه أنا... آه، لو أقدر أن أترك وجعي. اكتشفت فكرة أدهشتها كمن يكتشف حلاً لمعادلة عذّبته طويلاً، بأن الإنسان لا يقدر أن يترك وجعه. خاطبت الرجل الذي يملأ كيانها بحضوره الغائب: أنا هنا... كان يريدها أن تترك كل شيء وتعيش معه، لكنها كانت مرتبطة بألف وجع هنا.

غيّرت الشمس مكانها، وعانقت قمة جبل مكلّلة بالخضرة. الانبهار الذي يحدثه الغروب في روحها من الصعب وصفه، لكنها تمنّت أن تكتب له أحاسيسها في تلك اللحظة، وأن تصف له فتنة الطبيعة، مؤكدة له أنه معها كل لحظة. صدح صوت فيروز بأغنية عذبة: «بعدك على بالي»، فانسالت دموعها باردة على وجنتيها الرطبتين. ستكتب له أيضاً أن الدموع تكون باردة في الجبال،

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ستغلّف أحاسيسها في ورقة وترسلها له في مغلّف. كانت تشعر وهي تلصق الطوابع على الرسالة، أن الرسالة تصله بقوة عواطفها وليس بقيمة طوابع البريد.

توقفت عند امرأة ريفية تقلّب أرغفة الخبز داخل التنوّر، وقد تحلّق حولها أطفال تتوهّج وجوههم من حرارة التنوّر. اندسّت بينهم وطلبت مناقيش بزعتر عارفة أنها لن تأكلها، لكن لأن حبيبها يحبّ المناقيش بزعتر. تأمّلت السعادة العفوية الطافحة من وجوه الأطفال. أحسّت كيف يتحلّب ريقهم بانتظار الرغيف الطازج.

وجدتْ نفسها تحسد تلك المرأة الريفية البسيطة التي تعجن مادة الحياة بيديها، وتساءلت هل الحياة خبز ونار أم قلم وورقة؟ شيء ما يتحدّاها في تلك العفوية الفطرية. هنا تحسّ أن للحياة طعماً ورائحة، أما هي فتفبرك حبّاً يشبه الموزاييك، وهو حبّ جميل متّقن فلسفي، حب يعيش عن طريق الإنترنت. ابتسمت لها المرأة الريفية وهي تقدّم لها مناقيش الزعتر. رفضت أن تأخذ منها ما تبقّى لها من مال. شكرتها المرأة ودعت لها بالسعادة وطول العمر. كانت بحاجة أن تتبادل الحديث مع شخص حيّ أمامها، وليس مع شخص يعيش بذهنها أكثر مما يعيش معها. سألت الريفية أين تعيش، فأشارت المرأة ويدها ملوّثة بالعجين إلى بيت بسيط لا يبعد كثيراً عن التنوّر. تأمّلت يد المرأة الخشنة المعروقة وأحسّت بخجل من يديها الناعمتين. عند مدخل البيت رجل يفرم الدخان بمهارة وحوله أطفال يتصايحون. ضحكت المرأة الريفية كاشفة عن أسنان مصفرّة وقالت: هؤلاء أولادي، وهذا زوجي.

سألتها: كم عدد أولادك؟

قالت: ثمانية.

سألت: كيف تعيشون؟

وأشارت بيديها إلى السماء قائلة: الله كريم.

حدّثت نفسها: هذه هي الحياة؛ رجل قادرة على معانقته في الواقع وليس في الخيال، وأطفال يتمسّحون بجسد الأم. طلبتُ من المرأة أن تتفرّج على بيتها، فهي تتوق لمعاينة بيت ريفي عن كثب. ردّت المرأة ببساطة: بكل سرور، وعلا صوتها تنادي: حمودة... أسرع صبي قدّرت أن عمره خمس سنوات باتجاه أمه. كان حافي القدمين، مشعّث الشعر، عيناه تلتمعان بالعافية وخدّاه متورّدان. قال لاهثاً: إيه يما ماذا تريدين؟

قالت: رافق السيدة لتتفرّج على بيتنا، لا تؤاخذينا ليس من مقامك.

حاولت إمساك يد حمودة التي لها سخونة الرغيف وطزاجته، لكنه نفض يده وأخذ يركض أمامها وهي تلاحق قدميه الصغيرتين الحافيتين.

البيت غرفة واسعة غير مبلّطة تفوح منه رائحة الحبق والقرنفل والفلّ، وقد تراصّت فرشات عدّة فوق بعضها في إحدى الزوايا، وفوق صندوق خشبي تلفاز صغير. أعطت حمودة مناقيش الزعتر، وقطعة نقود. اتّسعت عيناه دهشة وهو يرمقها، لكنها ألحّت: هيا خذها. فاختطفها من يدها ودسّها في جيب بنطاله. سألته: أتسمح

www.ibtesama.com

تنسيق:علامة تعجب

لي أن أقبّلك؟ فضحك كاشفاً عن أسنان لؤلؤية. ضمّته إلى صدرها شاعرة بخفقات حبّ عجيب لكل الأطفال. لثمت خدّيه المكتنزتين الدافئتين. تمنّت لو كان طفلها، بدل أطفالها العشرة - دواوين شعرها التي لاقت إعجاب الناس وحفاوة النقّاد.

تابعت سيرها شاعرة كم أن حياتها باهتة، وأحسّت بالغيرة من تلك الأسرة التي تضجّ بالحياة. بدا لها بيتها الفخم في العاصمة أشبه بكفن. إنها تعيش بصحبة آلات ميتة: الكوندشن والإنترنت والكمبيوتر والغسالة... تبثّ حبّها لرجل تعشقه عبر الأثير، وفي المساء قبل أن يهزمها النعاس تتخيّل أنها تضمّ جسده فيما هي تضمّ وسادة وحدتها. فكّرت أن الحب هنا له رائحة القرنفل ومناقيش الزعتر، أما حبّها فليس له رائحة، لأنه معلّب في رسائل ومتنقّل بين غرف فخمة لفنادق عالمية الشهرة، إنما ليس لها خصوصية أي من نزلائها.

قلبت شريط فيروز في المسجلة، وقبل أن تتابع سيرها التفتت إلى الوراء لترى حمودة راكضاً صوب أمه يلوح بالنقود التي أعطتها له. فكّرت أنها ستكتب لحبيبها عن حمودة وستصف له البيت الذي ترشح جدرانه العارية سعادة.

وصلت إلى النقطة التي تتوقّف عندها وتعود أدراجها، لكنها أحست هذه المرة بصوت يأمرها بأن تخترق المجهول... قرّرت السير في ذلك الطريق الضيق الصاعد بقوة نحو المجهول... ورغم العتمة البنفسجية التي تركتها الشمس المتوارية وراء الجبال، مشت بسرعة لاهثة كأنها متأخرة عن موعد هام. كان

قلبها يخفق بشعور هوى كوني أكبر من الهوى الذي تحسّ به تجاه رجل حياتها. أكبر من هوى الشعر، وأوسع من غريزة الحياة النابضة في قلبها والمتفجّرة في أذنيها مع صوت فيروز... كان الطريق ضيقاً ترابياً ومتعرّجاً، وقد زاده خوفها إثارة، ثم غامت حدود الطريق فصار عليها أن تجد طريقها في تلك الغابة الكثيفة الموحشة. أحسّت بحبات العرق تتفصّد من جبينها وظهرها، وسخرت من ألم قدميها. كلما أوغلت في عتمة الغابة تحسّ بتدفّق هوى مجهول في قلبها، هوى تنصاع له. نزعت سماعتي المسجلة عن أذنيها وأنصتت للصمت البليغ للغابة. حاولت فكّ لغز هسيس الأغصان، ولغة حشرات وحيوانات لا تراها بل تحسّها كما تحسّ بسطوة ذلك الهوى الغامض الذي أسرها. تحوّلت لقلب ينبض عشقاً مختنقاً في سجن الأضلاع. تركت دموعها الباردة تغسل وجهها شاعرة أنها تتوحّد مع الأم الكونية - الأرض. توغّلت في الغابة هازئة من صوت العقل يأمرها أن تعود، وللمرة الأولى تتمرّد على صوت الحبيب الذي يعنّفها ألا تترك نفسها تنصاع لذلك الجنون الخطر ويأمرها أن تنظر في ساعتها. وبنزق وتحدٍّ رمت ساعتها الفخمة المرصّعة بأحجار كريمة، أفردت شعرها، وفكّت أزرار قميصها، رمت المسجلة في قلب الغابة وأخذت تركض شاعرة أنها تلحق قلبها الذي يتقدّمها دوماً، واثقة أنها سترتمي في آخر المطاف - حين لا يعود بقدرتها الحركة - في أحضان الله.

كم مضى من الوقت، لا تعرف. ورغم أنها تعثّرت مراراً،

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

ونزفت ركبتها، وتسحج ساعداها، وتلوّثت يداها بالتراب الرطب، إلا أنها كانت منقادة لذلك الهوى الكوني. لم تعد قادرة على الركض، خذلتها ركبتاها، فبدأت تزحف نحو قمة تغويها ببلوغها. كان ما تحسّه أعمق من الإثارة والسعادة، كانت تشعر بالكمال، الكمال الذي لا تعطيك إياه إلا قمم الجبال العالية، حيث يبدو كل شيء تحتها صغيراً، ضئيلاً. عرفت وهي تزحف بإصرار لبلوغ القمة، أن كل حياتها كانت محاولات لبلوغ القمة. فما قصائدها التي لاقت النجاح، وما حبّها الاستثنائي لذلك الرجل المشهور سوى محاولات للكمال...

لكنها تشعر الآن بأنها في قلب الحقيقة، ولا تعيشها من خلال ورقة وقلم!

لم تنتبه إلى أن سائلاً دافئاً أخذ يسيل من أنفها إلا حين أحست بطعم الدم في فمها، لكنها واصلت الزحف وهي تشعر أنها تستحق لقب العاشقة الكونية... كان قلبها كطفل سعيد يتنطّط أمامها. وحين امتدّت يداها عالياً لتلامس الغيم غرقت في غيبوبة جميلة تشبه الانخطاف، وكان آخر ما عبر ذهنها وهي تهوي في قاع وردي مضيء، صورة حمودة حافي القدمين يركض تجاه أمه التي تعجن الحياة بيدين معروقتين.

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

7

مجرّد صورة

ملأت ثلاثة أكياس سوداء كبيرة بأوراق ودفاتر لم يعد لها لزوم؛ كراسات جامعية، جرائد ومجلات اصفرّت أوراقها. كان لا بدّ من تخفيف اختناق مكتبتها. ورغم شعورها بالانقباض وهي تملأ الأكياس بماضيها، إلا أنها كانت مقتنعة أن الأفضلية للحاضر والمستقبل. تنهّدت أخيراً بارتياح وهي تمسح الغبار عن رفّين أفرغتهما من حمولتهما. أشعلت سيجارة وجلست مسترخيةً على الأريكة تنفث الدخان وتتأمّل الأكياس السوداء الكبيرة المنتفخة. ستطلب من عامل التنظيفات رميها، إذ لا طاقة لها على حملها. فجأةً انتابتها رجفة وهي تعي أن هذه الأكياس هي الدليل الحي لمرور الزمن... الزمن، هزيمة الإنسان الحقيقية... وكي لا تسترسل في الحنين الكئيب للماضي أكّدت لنفسها أن الأهمية للحاضر والمستقبل.

فكّرت أنه من الأفضل ربط فوهة الأكياس ليسهل على عامل التنظيفات حملها دون اندلاق محتوياتها. اضطرّت أن تضغط بقوة

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

محتويات الأكياس كي تتمكّن من ربط فوهاتها.

وحين همّت بربط فوهة الكيس الأخير لمحتْ عرَضاً صورةً تشفُّ من غلاف كرّاسة جامعية. كانت الصورة تمثّل لقطة من رحلة جامعية إلى شاطئ صور. قرأت تاريخ الصورة. حسبت أن ربع قرن يفصلها عن تلك اللقطة. انتابتها رجفة حين رأته، وتفشّت فيّ جسدها قشعريرة وصلت حتى وجنتيها اللتين دبَّ فيهما نملٌ من الانفعال.

دمعت عيناها لشدّة تحديقها بالصورة، وبكل قوة الكتمان الصلبة والتي عمرها ربع قرن أعلنت بكلّ حواسها أنه الرجل الوحيد الذي أحبّته... بدت مستغرقةً في ماضيها تتأمّل وجهه بألم ومشقّة، وتؤكد لنفسها أنها لا تزال تحبّه. أحضرت المكبّر وجلست تتأمّل ذلك الوجه مسحورةً ببهائه، متأججةً بهوى قديم استيقظ فجأة كمارد خرج من القمقم. دارت دموعها بمشقّة. قرّبت الصورة من شفتيها ولثمته، ثم ألصقت الصورة بجبهتها متخيّلةً أنه يقبّلها، فشعرت بحريق قبلته على جلدها. تذكّرت قبلتهما الأولى... كانت في سنتها الجامعية الثانية وهو في سنته الأخيرة في كلية الطب، ضمتهما صالة السينما المعتمة، كلٌّ منهما يعرف أن أحاسيسه متركّزةٌ في تلك المساحة الصغيرة من تلامس ذراعيهما... كانت انفعالاتهما تابعة لدرجة الإضاءة في السينما فحين يشتدّ الضوء يتمكّنان من تأمّل بريق الحب في عيونهما، وحين يتكثّف الظلام يستسلمان للغة الجسد. كانا مستغرقين في ثمالة الافتتان، متذوّقين نشوة تلامسهما الدافئ. فجأةً انقطع التيار

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

الكهربائي فشجّعهما الظلام للتلامس أكثر، ودون أن يخطئا التقت شفتاهما في قبلةٍ سحريةٍ عصفت بكيانهما.. كم استغرقت تلك القبلة، وكيف كانت، لاهثة، خائفة، عميقة، لم تعد تذكر. كان كل منهما يخمّن وجه الآخر في الظلام، ويحسّ بالامتنان للعطل الذي قطع الكهرباء. ما عرفته أنها وهي تهبه شفتيها أحسّت بجوهر كيانه كله، أحسّت بنبض دمه في شفتيه الحارتين المكتنزتين. تحوّلت السيجارة التي أهملتها إلى رماد، وتدحرج عقبها على الطاولة لينتشلها من استغراقها في الصورة. تأمّلت رماد السيجارة شاعرةً أنه رماد أيامها، وأعجبها تعريفها للماضي بأنه رماد. أجل، رماد لكن في قلبه جمرة لا تزال متّقدة.. لتعترف أنها تحبه رغم سخرية المنطق الذي درسته لسنوات طويلة، وتدرّسه في الجامعة.

أحسّت بأنها جالسة في موضعٍ لن تفارقه إلى ما لانهاية، مستسلمةً لسلطة الماضي عليها، راضخةً لذلك الهوى الذي قفز إليها من مجرّد صورة.

أشعلت سيجارة وهي تعي خسارتها له، خسارة هائلة أنها عاشت سنوات شبابها بعيدةً عنه. وهبت ذاتها لرجالٍ لم تكن هي ذاتها معهم. ومن قلب السكون سمعت الصوت النحيل للندم، وبدأ الوجه الذي يأسرها يكبر حتى ملأ حيّز الغرفة. كانت عيناها وحدهما تصلانها به، ولم تتوقّف لحظةً عن تأمّله رغم دماع عينيها تأثّراً. انفلتت من شفتيها كلمة أحبك، مشبعةً بالهوى فامتلأت بها الغرفة.

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

- أتعرف؟ لم أتوقّف عن حبك أبداً، لم أتوقّف عن حبك حتى وأنا أعلن حبّي لرجلٍ آخر... الفرح الذي عرفته معك لم أعرفه مع رجل آخر.

هذا ما قالته لرجل الصورة، مدركةً أنه لم يعد من مجال للحسرة، فربع قرن ينتصب أمامها كجبلٍ عملاق. ودون توقّع منها أخذت مشاعرها تتعرّى، تلك المشاعر التي لم تعرفها جيداً في حينها، بل لتعترف أنها لم تمتلك الجرأة لمعرفتها. تذكّرت زواجها الأول الذي كان رد فعل لإنهاء علاقتها معه. وحين كان زوجها يضمّها كانت تشعر تماماً أنها تحب رجلاً آخر، لكنها كانت ترتعب من تلك الحقيقة فتدفنها في أعماق لاوعيها. لكن بعد ربع قرن لم يعد من مبرّر للكذب على النفس. لن تسمح بعد الآن للذكريات أن تخدعها. الحقيقة أنها لم تحب أحداً مثلما أحبته، بل ظلّت كل حياتها تهرب من حقيقة أنها لا تزال تحبه.

أحسّت أنها تهتدي إلى ذاتها في حضرة وجهه المنبثق من أعماق روحها والمتجسّد في صورة. أخذ ضباب مخيلتها ينقشع شيئاً فشيئاً. استعادت صوته القادم من البعيد البعيد ليوقظ فيها مزيداً من الحسرات.

- لا أوافق على سفرك إلى باريس للاختصاص، فحبّنا أهم من الدكتوراه.

لم تكن تعرف وقتها أن شدّة عنادها دليل على ضعفها، تشبّثت برأيها:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

- بل سأسافر، لأني إنسانة طموحة ولن أضع حياتي في يديّ أنانية رجل متملّك مثلك. أنا صانعة قراري، أتفهم؟

كان قد بدأ عمله في جراحة الصدر، يريدها بجانبه تدعمه في شقّ طريق مستقبله الصعب، يريدها أن تملأ حياته حباً وأطفالاً، أما هي فكانت تغويها أضواء باريس لتكمل الدكتوراه في علم الاجتماع... أرادت أن يرافقها سنتين على الأقل، لكنه رفض.. تشبّثت برأيها وهي تصرخ به: لماذا تلحق المرأة زوجها إلى آخر الدنيا، لماذا لا يقبل أن يلحقها بدوره؟

تمّ الفراق بينهما، نهاية لاإنسانية لهوى عميق. اعتقدت أنها اتخذت القرار الصائب وهناك في باريس عاشت آلام الحب السرطانية - كما سمّتها. مراراً تمنّت لو تحزم حقيبتها وتعود إليه، لكن غرور طموحها كان يلجمها. عليها أن تحقّق ذاتها وتحصل على الدكتوراه.

أعماها غرورها عن تقدير حجم الأذى الذي ألحقته به وهي تصفه بالرجعي والمتخلّف. وحين سمعت أنه تزوّج طاشت حواسها من الألم، وزجّت نفسها في زواجٍ عشوائي عساها تنساه. كانت تبكي في أحضان زوجها حباً لرجلٍ بعيد مموهةً دموعها بأنها حنين للوطن ورغبة بإنجاب طفل تؤجله حتى تحصل على الدكتوراه.

حرقتها ذكرى بعيدة، قفزت إلى خيالها من أعماق الماضي. فبعد أربع سنوات من فراقهما، لمحته عرضاً في محطة المترو؛ كانت مستغرقةً في قراءة جريدةٍ، ترفع رأسها من حين لآخر

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لتعرف هل وصل المترو إلى محطة الشاتليه. ورغم السرعة الخاطفة للمترو، رأته ينتظر مرتدياً معطفاً كحلياً وقد أحنى كتفيه من البرد.. بحلقت فيه وهي تتساءل بقلبٍ لاهث: ماذا يفعل في باريس؟

دفعتها قوة للنزول في المحطة التالية مضحيةً بموعدها مع أستاذها، وراحت تركض مقتفيةً أثره ودموعها تسبقها متساقطةً على رصيف المترو الذي تدوسه أقدام الغرباء الجاهلين أنه مندّى بدموع امرأة عاشقة.

استسلمت للإرهاق وعادت راضخةً لأحضان زوج عارفة وحدها كم تخونه دون أن يلمسها أحد.

ظلّت لأيام مبلبلة، مشفقة على نفسها وتائهة، ولم تستطع لأسابيع أن تتحمّل لمسات زوجها فتتهرّب منه متعلّلة بصداع ووهن. كان جسدها ينكمش للداخل كلما لمسها... أحسّت وقتها بوحشية قرارها بالانفصال عنه مفضّلةً الدكتوراه. ياه، كيف أمكنها أن تسلخ قلبها من صدرها وتعيش بلا قلب؟

غمرتها الشفقة وأحياناً الاحتقار للرجل الذي تعيش معه بجسدها فقط. عجباً كيف لا يشعر أنها عاشقة، كيف يصدق أنها تبكي بكل تلك الدموع الحارقة حنيناً للوطن! ألم يشتمّ رائحة هوى عاثر في تلك الدموع؟

وحده الطفل سينقذها، هذا ما أكّدته لنفسها. وحين أكّد لها الفحص المخبري أنها حامل ذرفت عينها اليمنى دموع الفرح

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

كونها ستصير أماً، وعينها اليسرى دموع القهر لأن هذا الطفل لن يكون من الرجل الذي تعبده.

صار صغيرها رجل حياتها، انتشت بنجاحها كأستاذة جامعية وصاحبة أبحاث هامة، وأعطتها الأمومة زخماً عاطفياً هائلاً.. وغاب وجه الحبيب في ضباب السنوات. ثم انشغلت بمشاكل الطلاق، لأن الزوج وقع ضحية إغواء المال، وفضّل أن يقضي عمره بجانب بئر نفط في الصحراء.

عاشت نجاحاتها بقلب مطفأ، واهبةً ذاتها لعملها وطفلها. لم تكن قاسية على جسدها. من وقتٍ لآخر كانت تنقاد لأوهام الحب، لكن كل تلك العلاقات أكّدت لها حقيقة واحدة: هشاشة العلاقات الحميمة بين البشر.. كانت تلك العلاقات تنتهي رغم الزخم القوي الذي كانت تبدأ به، تنتهي كما لو أنها شيّدتها فوق الرمال.

قامت عن مقعدها مستغربةً أن تُحدث فيها مجرّد صورة كل تلك البلبلة.

استنجدت بالموسيقى، الكاسيت الذي تفضّله (عزف منفرد على الكمان). مَن مثل الكمان قادر على إيقاظ الشجن؟ رشفت قهوتها مستسلمةً لأحلام يقظة حميمة.

كانت تعرف أنه يعيش في العاصمة، وأنه غدا من أشهر أطباء الجراحة الصدرية... مسحت دموعها بظاهر كفها معترفةً بخسارتها العظيمة للرجل الوحيد الذي تمكّن من اقتحام باب

روحها. انتابتها رغبة حقيقية بالركوع أمامه ودفن رأسها في صدره والبكاء لخسارة شبابها بعيدة عنه، لكن ماذا ينفع الندم بعد هذا الزمن الذي ينتصب كشرخٍ هائل بينهما. ياه، لو تزوّجته وأنجبت منه أطفالاً، ونامت كل مساء بين أحضانه، وأجّلت الدكتوراه! بدت لها تلك الخيالات موجعة، وفوق طاقتها على الاحتمال. لِمَ لا تتصل به؟! تمنّت لو تسمع صوته رغم استنفار عقلها بالرفض. رفعت سماعة الهاتف بيدٍ مرتعشة واتصلت بقسم الاستعلامات في العاصمة طالبةً رقم هاتف عيادته. تأمّلت يدها ترتعش وهي تكتب الرقم.

أتراها تعاني حالة الاستسلام لسحر الوهم؟ مهما يكن فقد حزمت أمرها وقرّرت الاتصال به. أحسّت أن الأثاث حولها يطلق تأوّهات ألم، وشعرت كم هو ثقيل الإحساس بالحياة، كم هي ثقيلة تلك اللحظات، ممتلئة وكثيفة.

أتاها الرنين كدقّات قلبِ عاشق، ثم انبثق صوته من أعماق العزلة - عزلتها هي...

- أعتذر على غيابي، يرجى ترك رسالة، مع الشكر.

صوته المضمّخ برنين اللهفة، صوت تفتقده كأنه نابع من قلبها هي وليس من حنجرته. صوت متهدّج قادم من غور الماضي.

كرّرت طلب الرقم والإصغاء للصوت. تركت دموعها تسقط عساها تخفّف إحساسها بعبء تلك السنوات التي تثقل كاهلها.

وكلما همّت بترك رسالة له يتهدّج صوتها، وتخنق حنجرتها

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

الغصّات. ياه، ماذا فعل لها طموحها سوى أنه حوّلها لإنسانةٍ دفنت في أعماقها كل رغباتها الأنثوية. أغمضت عينيها لتستعيد بتركيزٍ أكبر لذّة قبلاته البعيدة.

بدت لها حياتها أسيرة غرور عقيم وعبثي في آن... لكن أمجرّد صورة تحدث فيها كل هذا الاضطراب، أكانت محتاجة لمجرّد صورة كي تواجه ذاتها؟!

لم تعد تعرف أين ينتهي الواقع وأين يبدأ الحلم؟ وهل إحساسها بالعجز والوحدة خاصةً بعد أن قرّر ابنها السفر للدراسة في الخارج، هو الذي يقوّي إحساسها بالهوى القديم؟ طردت باحتقار كل حجج علم المنطق الذي تدرسه منذ عشرين سنة وعادت لتأمُّل صورة الوجه الحبيب. امرأة مخذولة تمسك سمّاعة هاتف بيد وصورة الحبيب باليد الأخرى... خلفه البحر أزرقاً داكناً. ما أعذب ابتسامته.. لم تعرف لماذا شعرت بالمهانة، هل أهانت ذلك الحب الفريد؟ أحسّت أن كل شيء في حياتها ينضح بالوحدة: وسادتها، أوراقها، قلمها، ثيابها... أنصتت لصوته إلى ما لانهاية ذلك الصوت الذي له حنين الكآبة. كان عالم الحب القادم من البعيد يعصف بكيانها. أحسّت أن شفتيها تسخنان كأنهما تستعيدان دفء قبلاته. لكن ما فائدة تأجُّج هذا الهوى، ولماذا تسمع صوته الملحاح بترك رسالة؟ أليحرّض فيها المزيد من الأسى؟

انتشرت زرقة البحر في الصورة وغمرتها. أحسّت أن دموعها تصير زرقاء.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

شدّت على السماعة كأنها ترجوها أن تقذفها بين طيّات ذلك الصوت الذي تعبده... قالت وهي تقاوم غصّة قهر: هذه أنا. هل تذكرني؟

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

8

لهاث

«اسمعي. بما أنك نصف مؤمنة، فإن الله لم يستجب لطلبك كاملاً بأن تعيشي خارج سور مدينة الخوف - كما تدّعين - لكنه سيسمح لك بمغادرة المدينة لبضعة أيام كل مدة من الزمن يحدّدها لك».

أفقت على الصوت مرتعبة. فركت عيني متسائلة عن تفسير هذا الكابوس، لكن صدى الصوت كان لا يزال يتردّد في فضاء غرفتي الضيقة التي شحبت جدرانها لكثرة ما شهدت صراعاتي الداخلية وأحلامي المُحتضرة. وكعادتي كلما أفقت مجفلة من كابوس، أشرب ماءً. لكنني هذه المرة، ما كدت أفتح باب غرفتي متّجهة إلى المطبخ، حتى رأيت حقيبة سفر حمراء أنيقة بانتظاري. فتحت الحقيبة. كانت تضمّ أجود ملابسي، وفي قاعها العلبة الزرقاء التي أضع فيها أدوات زينتي البسيطة. هوى قلبي وأنا أرى قصاصة ورق صغيرة مكتوب عليها بخطّه الفوضوي الذي أحبّه: لم يعد لقاؤنا مستحيلاً، لقد دبّرت سفرك خارج السور. وأنا بانتظارك.

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

تذكّرت جملة كنت سمعتها أو قرأتها يوماً: حذار أن تطلب من السماء فقد يستجاب لك. إذاً أنا في قلب الحقيقة. أسرعت ألبس ثيابي وأطلب سيارة أجرى لتنقلني حتى حدود السور. كنت أغمض عيني طوال الوقت لأني لا أريد أن أرى الشوارع التي انتهكتني لسنوات بقذارتها وحفرها، ولم أبالِ بأسئلة السائق الفضولية عن سفري المفاجئ. كان كأغلب النسا في مدينتي يعيشون حياتهم برتابة، يوم ككل يوم، وقد تعبوا من أحلامهم في تجاوز السور الكبير. وحين وصلت إلى السور العالي رمقني السائق بارتياب وسألني: كيف ستعبريه وأنت امرأة؟

ابتسمت له مشفقة وأنا أمدّ له ورقة نقود لم يكن يتوقّعها. جلست بجانب حقيبتي الحمراء أرمق السور العالي. على جداره الثخين ماتت أخلامي وذبت طموحاتي.

فجأة اقترب مني نسر بجناحين عظيمين رفعني من تحت إبطي وحلّق بي عالياً. شعرت أني أغيب عما حولي، ولا أعرف إن كنت قد فقدت وعيي تماماً، لأني حين فتحت عيني، كنت إلى جانب الرجل الحلم، الرجل الذي عشت سنوات شبابي أحلم به، وأعيش أيامي يوم بعد يوم وسنة بعد سنة أستمدّ قوة أحلامي من احتمال لقائه.

كان قد أقام احتفالاً كبيراً على شرفي، وفتحت زجاجات المشروب الفاخر. رفعت الكؤوس ليشربوا نخبي، نخب امرأة شجاعة عبرت سور الخوف. وتحوّلتُ أنا المرأة من الضباب إلى امرأة من نور. كل شيء كان يبهرني، رغم أنني كنت أتصرّف كأني

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أنتمي لهذا الجو. كانوا يتحدّثون بعفوية وطلاقة في كل شيء. تنبّهت أن أي منهم لا يلتفت فزعاً من أن يكون مخبر يسمعه. حاولت أن أتخلّص من ذلك الغربال اللحمي الذي يلتصق بحلقي الذي ازداد صلابة مع الزمن ليغربل كلماتي. مددت سبابتي إلى أقصاها في جوف فمي عساني أمزّق ذلك الغربال، لكن سبابتي خرجت مدماة. وأمام نظرات الهلع في عيون الأصدقاء المحيطين بي، ابتسمت لهم مطمئنة: لا تخشوا عليّ، ثمة التهاب في لثتي.

لكني همست في أذن حبيبي بأني لم أتمكّن من نزع غربال الكلمات.

سألوني عن هناك، كيف هي الحياة خلف السور، لكن الخوف الأليف لجمني.

قلت: لا بأس. الحياة هناك فيها إيجابيات وسلبيات؟

- وما هي الإيجابيات والسلبيات؟

ابتسمت، وأنا أحاول أن أتجاهل نظراتهم المتعجّبة والمستنكرة في آن.

قلت: سأتحدّث في ما بعد.

وألحّ أحدهم: لماذا لا تتحدّثين الآن؟

قلت: لأن لكل شيء أوانه.

صارت أهم صفة أتمتّع بها هي التملّص والمواربة. لأني لا أجرؤ أبداً على النظر في وجه الحقيقة.

حين قبّلني الرجل الحلم من فمي أمام الجميع، أصابني

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

زلزال من الرعب. ظلّت عيناي مفتوحتان بذعر وهو يقبّلني، ولم أغمضهما منتشية كما كنت أفعل في الأحلام. أبعدته عني وأنا أحدّق في عيون الناس حولي لأقرأ تقييمهم لي كقحبة. لكن أي منهم لم يعر تلك القبلة اهتماماً، تهلّلت فرحاً: إذاً أنا لست قحبة!

وحين جمعني سقف واحد مع الرجل الحلم، أسرعت إلى الحمام وأخذت أدعك جسدي بخشونة أقرب للوحشية بالليفة والصابون عساني أتخلّص من مشاعر الإثم. لكن عبثاً خرجت بجلد أحمر تفوح منه رائحة الإثم العطرة. وبمساعدة موسيقى رومانسية يبثّها مذياع صغير وعدّة كؤوس من النبيذ، وغطاء من الحنان والشهوة دثّرني بهما الرجل الحلم، تمكّنت أن أهرب من أكفان الخوف الآثمة وأتذوّق للمرة الأولى طعم الحرية النقية، الأشبه بطعم ماء الزهر المكثّف. وفي الصباح حاولت أن أرسّخ حريتي، فتمشّيت عارية في الغرفة أمام حبيبي، لكن جلدي ظل يكبّلني. ياه كيف أتعرّى ولا أكون عارية؟!

كانت المشاعر التي تصطخب في صدري فوق احتمالي، لأنها نقيض كل ما عرفته سابقاً. فكيف أكون محبوبة ومحترمة من قبل الرجل الحلم وأصدقائه دون أن يربطنا رباط شرعي! في قاموس البيت والمدرسة تعلّمنا بأن المرأة لا تكون محترمة إن لم يربطها بالرجل رباط رسمي، أي أنها خارج الزواج تكون قحبة إن ضاجعت رجلاً.

أذكر ذات يوم بعيد حين كنت طفلة أتنفّس تلك الأفكار:

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

ماما، والرجل ألا يصير قحبة إن ضاجع امرأة غير زوجته؟

قالت عابسة: لا، هذه الكلمة تخص النساء فقط.

وحين هممت لطرح مزيد من الأسئلة زجرتني.

لم أعد منبهرة ولا مرتعبة من عالمي الجديد، لأن كثيراً من النساء حولي كن يعشن الحب الحرّ علناً ودون رباط شرعي، وكنت أراقبهن طوال الوقت مراقبة تلصصية دقيقة لأضبطهن في عهر مبطن. لكني كنت أزداد إعجاباً بصدقهن، وبذلك النقاء الروحي العميق الذي يشعّ من عيونهن. لكني لم أستطع أن أمنع نوبات ذعر كانت توقظني من عز النوم، لأحدّق بذاك الرجل بجانبي غير مصدّقة أنه حقيقي. فكنت ألمسه وأقرّب وجهي من صدره مصغية لأنفاسه، وأحياناً كنت أصرخ به: هيا قل الحقيقة، أنت تلهو بي وتستمتع بجسدي، وفي أعماقك لا تحترمني.

لم يكن يردّ على غضبي المريض، بل كان يغرقني بحنانه، ويحاول شفائي بقبلاته البلسمية.

بعد أيام من رحلة الحرية كنت أشتري وروداً حمراء لأفاجئ بها حبيبي. كنت أمشي مبتسمة أدندن لحن أغنية عاطفية. تنبّهت لأول مرة في حياتي أني دوماً أسير عابسة أنظر بامتعاض وغضب لكل ما حولي. بدت لي ابتسامتي هذه كولادة جديدة، كمعمودية امرأة انتقلت من عبودية الأخلاق الزائفة إلى سعادة الحب التي لا يمكن تحققها إلا بالحرية. فجأة ظللتني غيمة رمادية ثقيلة، وغشى نظري ضباب كثيف، وقبل أن أتمكّن من الصراخ: ما الذي

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

يحدث؟ كان النسر يحملني بعيداً ليرميني هناك داخل السور امرأة وحيدة ومخذولة. كانت السعادة الجشعة التي عشتها في بلاد الحرية قد أنستني أن السماء لم تستجب لطلبي كاملاً بسبب فتور إيماني، وبأنها لن تسمح لي إلا ببضعة أيام من الحرية كل مدة يحدّدها القدر.

عدت إلى غرفتي أمسح غبار أحزاني المتراكم، وعاد الزوغان إلى عيني كمن يبحث عن ذاته فلا يجدها. واستأنفت مشاوير تسكّعي في الشوارع متأملة الوجوه المطفأة حولي والمستعدّة للمجاملة دوماً، وكنت أردّ على الابتسامات الذابلة بابتسامات أكثر شحوباً.

بعد أن تكرّرت رحلاتي خارج سور الخوف، قرّرت أن أغيّر مهنتي وأصير حكواتية. صار جمهور كبير من النساء يتحلّقن حولي كل عصر وأنا أحكي لهن عن العالم هناك، خلف السور. حكيت لهن عن نساء يعشن حرية كالرجال، يشربن الخمر، يسافرن ويعشن علاقات حب علناً ودون رباط زوجي. فيصرخ الجمهور: هل يعقل أن يتصرّفن هكذا ويكنّ محترمات؟!

صارت حكاياتي أكثر تشويقاً كلما سافرت خارج السور، لكن تلك الرحلات صارت تدخلني في بلبلة عنيفة مع نفسي. شعرت كأني مصابة بانفصام في شخصيتي. كيف عليّ أن أتأقلم مع حياتين متناقضتين، أعيش لأيام في ذرى الحب والحرية مع رجل أحبّه، ثم أختنق أسابيع طويلة في منزل أبي الذي يغلق كل مساء الباب بمفتاح يخبئه دوماً في جيبه.

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

استدعيت ذات يوم من قبل الجهات المختصة للحفاظ على الأخلاق، وفي غرفة معتمة انتظرت ساعات طويلة دون أن أعرف لماذا أنا في هذا المكان الموحش القذر. كانت أصوات غامضة تتناهى إلى سمعي. لم أميّز إن كانت صراخاً أم بكاءً، أم ضحكاً. . . ثم قادني رجل رثّ الهيئة لمقابلة اللجنة الحريصة على أخلاق الناس. صلبتني نظراتهم الميتة وسمّرتني في مكاني. تهمتي كانت الترويج للدعارة والإباحية، وبأنني أدعو النساء لشرب الخمر وممارسة الجنس خارج إطار الزواج. وحين حاولت الدفاع عن نفسي منعوني وهدّدوني بعقوبات كبيرة إن تجرّأت وحكيت قصصاً بعد اليوم.

تقوقعت في غرفتي ولم أعد أجرؤ على مواجهة الناس. وحين كانوا يلحّون عليّ كي أحكي لهم قصصي المشوّقة عن العالم هناك، كنت أهزّ رأسي أسفاً وأشير إلى فمي كي يفهموا بأن داء الخرس أصابني. وبدأت أنتظر إشارة سفري ليحملني النسر إلى هناك. قرّرت ألا أعود أبداً، ورجوت الله أن يستجيب لدعائي وأكّدت له أن إيماني حاراً وليس فاتراً. وأخيراً لمحت الإشارة، نجمة حمراء تومض في قلب الليل لبرهة، وأسرعت أنتظر النسر عند السور، وأنا أقاوم إحساساً عظيماً بالإعياء وبأن النهاية تقترب. . . كان إحساسي أن نهاية شيء ما سوف تحلّ قريباً يرهقني. . . لكني لم أستطع أن أميّز أية نهاية هذه بالتأكيد نهاية الخوف والذل.

رفعني النسر عالياً. ما أحلى الطيران. نظرت للعالم، بدا

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

صغيراً وتافهاً. لم يعد قادراً على إيلامي. فجأة دوت طلقة مزّقت وشاح السماء السماوي... أحسست بوخزة حادة قصيرة في صدري، وبدأت ورود حمراء صغيرة تزيّن حرير السماء الأزرق متدفّقة من ثقب صغير في قلبي، كنت أغنّي بصوت واهن، قلبي ورود حمراء، قلبي ورود حمراء...

وآخر ما رأيته أن تلك الورود أخذت تتهاوى ببطء عند حدود السور. لكن كم كنت سعيدة لأنها سقطت عند الحدود الخارجية للسور ولم تسقط داخله في مدينة الخوف... تنهّدت بسعادة والنسر يحلّق بي عالياً يأخذني إلى ذرى لا أعرفها. أخيراً نجحت أن أجعل موتي على الأقل بليغاً.

9

أبجدية الحب

صار يخاف أن يقضي عليه الغضب، هذا الشعور الذي لا يستطيع بدقّة تحديد بدايته. صار يتعملق في داخله ويستشري في روحه يوماً بعد يوم، لدرجة صار يشعر أنه سجين ذاته الملتهبة دوماً بالغضب.

في البداية لم يول هذا الشعور أهمية، فالغضب مجرّد شعور لا يقلق ولا يخيف، أشبه بعاصفة في فنجان، سرعان ما تتبخّر دون آثار. لكنه صار ينتبه مع الزمن أنه يبدأ يومه متجهّماً وبسيل من الشتائم الخرساء يوجّهها نحو كل شيء حوله. لم يستطع أن يعرف أبداً أن سبب شتائمه الغاضبة هو مشاعر القهر الدفينة التي يحسّها يومياً. فما أن يفتح عينيه كل صباح حتى ينتابه إحساس أن هذا العالم مليء بالأخطاء، وأن هناك هوّة نفسية هائلة بينه وبين الناس. وفجأة وجد نفسه بلا أصدقاء وحيداً مع مشاعر غضبه الفتّاكة.

كل شيء صار يثير غضبه. يلعن الشمس الصباحية التي تحرق

www.ibtesama.com

تنسيق:علامة تعجب

رأسه وتسبّب له الصداع، أو يلعن المطر والبرد، ويمشي في الشوارع يقذف الشتائم على أكوام القمامة الأشبه بهضاب صغيرة متناثرة في الشوارع. ينتظر الباص شاتماً المواصلات التي تشعره أنه مجرّد حشرة، وحين تمرّ أمامه السيارات الأنيقة يشتمّ أصحابها متهماً إياهم بالسرقة. ذات يوم كان يسير على الرصيف فسقطت على نظارته نقطة ماء من مكيّف. جنّ من الغضب ولعن الناس الذين يتمتّعون بترف المكيفات، متذكّراً مروحته السقفية الوحيدة التي لا تبدّد الحرّ ولا الرطوبة، بل تزعجه بصوتها الرتيب.

صار ينتبه كم يضطر للقيام بمجهود كبير ليبدو طبيعياً بين زملائه في العمل. يشمئزّ من أحاديثهم، يفكّر أن الناس لا يملكون سوى الكلام، بل يحلو له أن يلقّبهم بأوعية للكلام. كان يستمع إليهم كيف يغرقون بتفاصيل يومياتهم التافهة، راسماً ابتسامة مجاملة على وجهه بينما مشاعر غضب تأكل روحه الموغلة في وحدتها. لديه زميل في العمل يحكي لزملائه تفاصيل مناماته، وآخر مفتون بابنه الذي رزق به بعد سبع بنات، فيحكي لهم كيف يلفظ ابنه الكلمات، ويقلّده منتشياً وكأنه لم ينجب صبياً بل نبيّاً. كان يفكّر وهو يصغي لتلك الثرثرة بهشاشة العلاقات البشرية وسطحيتها. أهكذا تكون الأحاديث بين البشر؟ أين حديث القلب للقلب والروح للروح؟

صار يعيش يومه مراقباً للتدهور الفظيع في حياته وحياة أمثاله من الموظفين. ربما الفقر هو سبب العزلة بين الناس. أين صداقاته

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

القديمة والسهرات الحلوة والأحاديث الحميمة؟ أين الموائد الشهية تزيّنها المازات؟ أين غابت تلك السهرات؟ كيف امّحت وجوه الأصدقاء؟

ما عاد هاتفه يرنّ، بعد أن كان يصلصل دوماً. لا أحد يفتكره ويشتاق إليه. لقد نُسي تماماً. هذا ما كان يردّده لنفسه كأنه يشمت بها، وهو بدوره ما عاد يتّصل بأحد من أصدقائه. كل منهم صار أسير عزلته. حاول جهده أن يتأقلم مع وضعه الجديد كرجل وحيد محاولاً إقناع نفسه بضرورة تبليد مشاعره وأحاسيسه، وبواجبه للتغلّب على مشاعر الألم والوحدة والسخط من انهيار الصداقات. لكنه كان يفشل في الوصول إلى بلادة اللامبالاة بل صار عليه أن يتعرّف على الإنسان الذي يصيره. إنه يعاني حالة غريبة من فقدان الصبر لكل شيء. فكم من المرّات كان ينوي شراء حاجيات من السوق، فإذا أحسّ البائع منشغلاً مع زبون آخر، أو بطيء الحركة، انفجر غضبه كاسحاً، وترك الدكان بخطى متعثّرة من فرط الانفعال.

لم يحاول تخفيف غضبه بل صار يستسلم له بنوع من التلذّذ، وأصبح يشمئزّ من أخته وزوجها لكثرة ما هما راضيين عن أنفسهما. تباعدت زيارته لهما حتى انقطعت لأنه ما عاد يتحمّل الحديث ذاته عن فساد الجهاز التعليمي في المدارس وغلاء المعيشة. كانا ممتلئين بذاتهما لدرجة لا يسألانه عن أحواله. فجاره المتقاعد الذي يتناول إفطاره على الشرفة يثير في نفسه مشاعر عنيفة من الغضب والاشمئزاز لأنه يقع في مجال نظره كل

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

صباح، بوجهه المتهدّل، وأحياناً يراه كيف يحكم وضع بدلة أسنانه، ثم يبدأ في رشف الشاي بتمهّل، وأمامه الصحون الثلاثة ذاتها تحوي الزيت والزعتر والزيتون. . .لم يكن الجار المسكين يعرف أنه يثير كل تلك المشاعر من الاستياء والغضب عند جاره. فهو بريء من تلك الأحقاد، ومن غضب جاره الذي قد يكون سببه مشاعر الاستعلاء عليه. لم يكن العجوز المسكين يعرف أن جاره الشاب يقول له كل صباح فيما هو يتناول فطوره: (مطرح ما يسري يهري).

في المساء كان يقيس أعماق عزلته شاعراً أن الضيق يطوّقه أكثر فأكثر. دوماً المساء يمنحه الهدوء لأن الانفعالات اليومية كانت تنهكه تماماً، فيعترف لنفسه بنزاهة شاعراً بهزيمته وكيف أن أحقاده تشدّه إلى الوراء، وأنه في الحقيقة إنسان مطرود من الحياة بمباهجها الكثيرة ويدرك بتواضع حقيقي مقدار الدمار الداخلي الذي يفتك به، وكيف أنه صار يتسلّى بالكراهية بدل أن يترك لمشاعر الحب أن تنمو. وطالما سمح لنفسه أن يتساءل بسذاجة الأطفال: لماذا اختفت مشاعر الودّ بين الناس، ولماذا يشعر دوماً أن الناس وجدوا ليتشاجروا مع بعضهم ويحسدوا أحدهم الآخر؟ ترى من المسؤول عن هذا الخراب النفسي؟ أليس زملاءه مساكين ووحيدين مثله؟ وما أدراه فقد يكونون غاضبين ووحيدين مثله، لكن كل واحد يداري إحباطه ويستمرّ في تمثيلية الحياة. تنبّه أن يمتلك هوساً للصمود في وجه صعاب الحياة، وبأن غضبه الأخرس ليس سوى دليل على مقاومته الشرسة لرداءة الحياة. في

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

قلب الليل، غارقاً في ظلمات روحه، محاولاً بجدّية تبديدها، كان يعتذر لجاره العجوز عن مشاعر العداء والاستعلاء والكره التي يحسّها تجاهه، فيفكّر به بحنان عذب، ويرقّ قلبه المنهك من انفعالات النهار العنيفة، فيتخيّل جاره رجل وحيد أرمل، متقاعد، يعدّ الفطور لنفسه، يحلو له أن يأكل على الشرفة ليؤنس نفسه بمنظر الناس الذاهبين إلى عملهم، تحديداً منظر الأطفال الذاهبين إلى المدرسة. ينكسر قلبه بالحب في صمت الليل ويحلّ اللطف طارداً الغضب الأسود. ياه، ما أجمل أن يلين القلب بالحب تجاه أناس بسطاء. يعتذر لزملائه في العمل عن مشاعره العدائية تجاههم. يا لهم من مساكين، ماذا يملكون سوى الثرثرة، أليست وحدها دواء للقلوب المثقلة بالهموم؟

هل السبب في تدهور معنوياته غياب الحب من حياته؟... ترى كيف غاب الحب؟! لم يعد يعرف، بل لا يريد أن يعرف. لكن حين يكون كل شيء حوله مهيناً، حين يشعر أنه بلا كرامة، فكيف سيورّط إنسانة معه في علاقة حب؟ والزواج ألا يعني حياة مرتاحة، ألا يعني المال؟ هذا ما يؤكده له الواقع كل يوم. لكن مَن يساعده على ترميم تشقّقات روحه الوحيدة، هل عليه أن يستشير طبيباً نفسياً؟

لم يكن يتخيّل أن بذرة شفائه من أحقاده ستكون في موت جاره. فذات صباح ما أن فتح نافذة غرفة نومه، لم يجد العجوز يتناول إفطاره. صدمه الكرسي الخشبي العتيق والطاولة الواطئة المهترئة فارغة إلا من صحفة سجائر معدنية تضمّ رماد أحلام

احترقت. هوى قلبه وبحث بعينين قلقتين عن العجوز، صفعه الندم وهو يتذكّر جملته الصباحية اليومية: (مطرح ما يسري يهري). خرج إلى الشرفة فلمح في الشارع شباباً منهمكين في طقوس الجنازة. أسرع يلبس ثيابه وتوجّه لبيت الرجل شاعراً أنه قتله بأحقاده، متذكّراً أنه لم يكلّف نفسه مرة بزيارته أو حتى بإلقاء تحية الصباح له. بدت له قسوة أحقاده مرعبة، وهو يعي تشوّهات روحه التي عاشت لسنوات في كهف الكره المظلم. سمع شباناً يتحدّثون بأن الكهل مات بسكتة قلبية. لكنه صرخ بصوت هتكه الحزن وهدجته الدموع: لا بل مات من الأحقاد.

لم يعره الشباب انتباهاً، لعلّهم لم يفهموا ما قاله، لكنه في تلك اللحظات أخذ يبكي ندماً فوق يدي الميت الباردتين المعروقتين، وهو يرجوه أن يسامحه، وأن يساعده للشفاء من أحقاده الفتّاكة. تذكّر الصحون الثلاثة الممتلئة بالزيت والزعتر والزيتون، وكأس الشاي وملعقتين السكر التي يذيبها العجوز بيده المرتعشة محرّكاً الشاي بتؤدة بملعقة صغيرة. حرقة الندم مطهّراً روحه من آخر ذرة حقد. قبّل الكرسي الخشبي بحنان، كم كان يتمنّى أن يطبع تلك القبلة على رأس العجوز قبل أن يموت. تخيّل أنه يفطر معه، قال له بقلب مزّقه الندم (مطرح ما يسري يمري). رأى بعين خياله أنه سيزور العجوز في مثواه الأخير مراراً وسيحمل له زهوراً. لقد تعلّم من موته أبجدية الحب التي غيّبها الحقد طويلاً.

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

10

التسوّق الأخير

رؤوس العجول المقطوعة والمسلوخة، بدت متماثلةً ومتطابقة لكأنها صورة رأسٍ واحدٍ تتكرّر إلى ما لانهاية في مرآتين متقابلتين، مصفوفة ومتلاصقة فوق لوحٍ خشبيٍّ. تحت الرؤوس قصعة كبيرة تحتوي الأكباد والأمعاء، على الأرض قصعات تحتوي الأقدام...

لم يستطع أن يمنع نفسه من الانقباض وهو يتأمّل المنظر الوحشي كما سمّاه، وكي يستفزّه خياله صوّر له صورة عجولٍ رشيقة ترعى في مرعى نظيفٍ شديد الخضرة معمّدٌ بالشمس. تابع خطواته بحذر في «سوق الخضار» متجاوزاً أكوام قمامة متعفّنة، غزت رئتيه بسموم بخارها. الدكاكين التالية، كانت دكاكين دجاج، وقد فُرزت الأفخاذ في أوعية مجاورة. توقّف ليتأمّلَ صبياً لا يتجاوز العاشرة من عمره يقطع دجاجة بواسطة آلةٍ كهربائيةٍ لها شكل دولابٍ معدنيّ حاد. وغير بعيدٍ عنه، كانت الدجاجاتُ تغادر سجنها لتُذبحَ ثم تُلقى في برميلٍ وسخٍ يدور مصدراً قرقعةً هائلةً،

ثم يتوقّف لتخرج منه الدجاجة عاريةً جاهزةً للتقطيع.

تأمّل الصبيَّ الذي تعمل يداه بمهارة على آلة التقطيع الجهنميّة، كيف تقصُّ العظام بالسهولة التي يقصُّ بها أظافره رامياً الصَدور والأفخاذ في أوعيتها بمهارةٍ متعوِّدٍ وغير مبالٍ. حدّث نفسه: هكذا يتعلّم الإنسان القسوة.

حاذر في خطواته أن يصطدم بالبضائع التي تعرضها الأعرابيات، وهكذا كان الناس يسمونهن. كنَّ يُقرفصن بثيابهنَّ الطويلة ومناديل رؤوسهنَّ المزركشة قرب قدورٍ من اللبن والجبن والزبدة ويعرضن بضائعهنَّ على المارة دون أن يبذلن أي جهدٍ لإبعاد الذباب المتراكم فوق القدور. وكنَّ يصطحبن أطفالهنَّ معهنَّ، يتركنهم طوال اليوم على الرصيف دائخين من التفرّج على مظاهر النتانة والقبحِ اللذين يفسدان كل طاقة خيال عندهم. استوقفه وجه طفل صغير لا يتجاوز السنة، يغفو في حضن أمه المقرفصة بجوار وعائها الكبير المملوء بالجبن البلدي. ورغم مهرجان الضجيج والنتانة والذباب والحر إلا أن وجه الصغير كان يعكس اطمئناناً ملفتاً، وهناءةً لا حدود لها، وكأن حضن تلك الأم المتخمّرة بعرقها وروائح بضائعها الحامضة هو حضن العالم بالنسبة للصغير. أحسَّ بخشوع وهو يتأمّل هذا الصغير الغافي. تمنّى لو يشتري كل بضائع أمّه ويقول لها: اذهبي واعتني بالصغير بعيداً عن سوق القمامة والذباب هذا... لكنه كان يعرف أنه لن يقدر على شراء كل تلك الكمية الكبيرة من الجبن، ويعرف أنها لن ترجع إلى البيت، بل ستبقى بانتظار زميلاتها، مجرجرةً معها

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الصغير كأنه لا يزال قطعةً من أحشائها.

اخترق السوق أخيراً قاصداً اللب أو القلب، حيث تتلاصق العربات الخشبية تعرض الخضار والفاكهة، وتتنافس أصوات البائعين في العلوّ، وفي تصنُّع لهجة إغواء الناس للشراء...

كانت زوجته - كعادتها - قد أوصته أن يشتري كذا وكذا، لكنه تمرّد هذه المرة راغباً بالتحرّر من طلباتها الشبيهة بالأوامر. سأل نفسه: ماذا تريد أن تشتري يا سليم؟ رمقت عيناه عربة البامية بشوق. ابتسم بكآبة وهو يتذكّر أنه لم يتذوّقها منذ عشرين عاماً، وطفتْ صورة الطبيب في ذهنه يحذّره: «ابتعد عن الطعام الذي يحتوي الأليف، إنه مهيِّج للقولون». تنبّه له البائع كيف يرمق البامية بحنان محروم فمدَّ له كيساً أسود قائلاً: «لا تتردّد، لن تتذوّق أطيب منها». تناول الكيس وأخذ يملأ قبضته من البامية مالئاً الكيس. ستغضب زوجته، سيتركها تبرطم دون أن يعلِّق بكلمة، ستتظاهر بأنها غاضبة لأنه يخلُّ بصحّته، أما الحقيقة، فهي تكره إعداد هذه الطبخة. عشرون عاماً وأمعاءه تُذلّله، تذيقه آلاماً تستمرّ أياماً وليالٍ، وتُدخله في نوبات مخجلة من الإسهال المدمّى. وكم من مرة تعرّض لتداخلات جراحية وأخيراً، والآن وهو على بعد خطواتٍ من التقاعد، أخبره طبيبه أنه استنفذ كل الفرص العلاجية، وأن الحل الوحيد المتبقّي هو قطع كامل أمعائه الغليظة، وفتح فوهة جانبية في خاصرته لتخرج منها الفضلات.

عكس خياله صور القدور المملوءة بأمعاء العجول. وجد نفسه يقول جملة انبثقت من ذهنه دون تفكير: مأساة البشرية. دفع

ثمن البامية وهو يحسُّ بنشوةٍ. تنهّد مخاطباً نفسه برقّةٍ جديدة عليه، ذلك أنه قضى أغلب حياته متجهِّماً من الهموم المادية والمرض: كم من السنوات لم تفرح روحك يا سليم؟ وأجاب شقيق روحه: آه، منذ زمن بعيد.. لشُدَّ ما كان متواطئاً مع نفسه في تلك اللحظة، مكتشفاً وسط ازدحام سوق الخضار، أن صداقة الذات هي الصداقة الوحيدة المتبقية للإنسان. وأتاه الإلهام المؤكد أنه لن يقدم على هذه العملية أبداً... ولأول مرة استطاع أن يواجه أسباب قلقه العميق، شديد الوطأة. إنه ليس الخوف من العملية أبداً... بل الخوف من الذين يحبونه. وتذكّر جهاداً ابنه البكر، المهندس المبتدئ الذي يعاني ضغوطاً مادية كغيره من الشبان، والذي يطمح أو يطمع - لا فرق - في أن يعطيه والده ما ادخره طوال حياته لأوقات الحاجة. صحيح أنه لم يدَّخر الشيء الكثير، مجرّد مائتي ألف ليرة، كان يعرف أنها ستتبخّر نفقات للعملية وما بعدها... الآن يستطيع أن يواجه الحقيقة وجهاً لوجه. يعرف لماذا تعكّر مزاج جهاد، وعصف به غضب مكتوم يوم أحسّ أن مائتي ألف سوف تتبخّر على أمعاء والده وليس على مشروعه المستقبلي... لكنه في حمّى آلامه المبرحة كان يداري تلك الحقيقة، يموِّهها. تساءل وهو يمشي في سوق الخضار محاذراً أن تزلَّ قدمه بسبب سخام القذارة الذي يفرش الأرض، لماذا أعيش أكثر؟! أليس الموت - أحياناً - يصون كرامة الإنسان، أكثر مما تصونها حياته؟ وتذكّر يوم فاجأ زوجته وابنه جهاداً يتهامسان حول مرضه، وكيف بهتا حين وقع نظرهما عليه. لا يزال يذكر ابتسامته

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

الودود البلهاء، والقلق المذعور في عيونهما. يومها حاولت زوجته إقناعه بأنهما قلقان بشأن صحته، ومتخوّفان من العملية و. . . تلكّأت ولم تعرف كيف ستكمل حديثها.

كانت تخشى أن يكون قد سمع كامل حوارهما. . . لكنه فهم الآن بعد أن استعاد نظراتهما في ذهنه، كل ما قالاه، أمكنه أن يسمع نظرة جهاد وليس أن يفهمها فقط، وتخيّل وجه ابنه الوسيم المنظر يقول ساخطاً: إنه على بعد خطوات من التقاعد، كهل ومريض وميؤوس من شفائه، وسيدفع مائتي الألف من أجل عملية غير مضمونة، في حين أنني شاب أبني مستقبلي، وأحتاج هذا المبلغ لأشارك زميلي بمشروع ناجح مائة بالمائة، مشروع صناعة الشموع التزيينية. حاولي أن تقنعيه يا أمي بالعدول عن العملية، ثمّ. . . ثمّ أي ذُلّ أن يفرغ فضلات أمعائه من فتحة في خاصرته؟

توقّف عند بائع البطيخ، البطيخ الأحمر المملوء بالألياف، وابتلع ريقه وهو يستحلب طعمه الحلو والمميّز. يحبّه بارداً جداً. سيأكل البامية أولاً ثم البطيخ، ولتبدأ آلام قولونه بعدها. لا يهمّ، ستكون المسكنات التي صادقها سنوات طويلة بانتظاره. تأبّط بطيخةً كبيرةً، ومشى متسكّعاً بين العربات. الضجيج والروائح حوله تُدخله في حالة تشبه الغياب. خرج أخيراً من الدوامة إلى الشارع لتطالعه لافتة جعلته ينفجر ضاحكاً: مشفى الأحذية، تصليحٌ، درزٌ، ترقيع كل أنواع الأحذية. راقت له هذه الجملة كثيراً، حدّث نفسه: هذه هي الحداثة، وقد يكون مشفى الأحذية أكثر رحمةً من مشفى البشر، على الأقل هنا يبذل الصانع خالص

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

جهده لإصلاح الحذاء، فهل يُبذل هذا الجهد لترميم البشر!!!
وعاد يتذكّر حنق جهاد في صرف مدّخرات عمره على صحّته، أشفق عليه وحاول أن يجد له المبررات. بالتأكيد أنه ضحية زمن ماديّ لا يرحم، زمن يتمنّى فيه الابن اعتصار أبيه واستخراج مضمون بطانة جيوبه. آه، لا بأس يا ابني الحبيب، سأعطيك مدخرات عمري المادية القليلة، إنما ما يؤلمني كونك لا تعرف كم أحبُّك وكم... آه، كنت أتمنّى لو أحسّ محبتك لي، لو تحتضنني يوماً وتقول لي: يا أبي لا تخشى العملية، لا تكتئب هكذا ساعات وأنت مطرق تلاعب نفسك بالورق أو تقرأ بمللٍ الجرائد اليومية. سأكون إلى جنبك دوماً يا أبي الحبيب وسأقدّم لك راتبي الهزيل أيضاً لو احتجته. وجودك بركةٌ يا أبي. موقفٌ كهذا كان كفيلاً أن يسكّن آلامه، أن يفارق الحياة وهو سعيد... لكن جهاداً دائم التجهّم والغضب والسخط على الظروف، على الراتب، وعلى الحظ.

حين همَّ بعبور الشارع تذكَّر وجه الطبيب وهو يضع له خطة العلاج قبل العملية: عندك فقر دم من النزف المتكرّر في القولون. يجب أن نعالجه أولاً، كي تحتمل التخدير والعمل الجراحي. كما أنك مصاب بنقص تروية قلبية قديم، لذا يجب أن نحتاط ونستدعي طبيب قلب يلازمك طوال العملية، وأنصحك بعلاج أسنانك المنخورة لأنها ستكون بؤرة لإفراز الجراثيم.

طرد صورة الطبيب من ذهنه متأفّفاً: كفى، ماذا سأصلح في هذا الجسد الذي اهترأ من التعب والمرض وتعاقب السنين، وقد

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

تُجرى كل هذه الإصلاحات وتكون النتيجة غير محمودة. لماذا عليه أن يعيش مجترّاً آلامه الجسدية والنفسية؟ إنه يرى نفسه بعين خياله كيف سيكون عبئاً على الذين يدّعون أنهم يحبّونه. بحثت عيناه بلهفة عن الطفل الغافي في حضن أمه، أمكنه أن يميّزه عن بعد. لا يزال غافياً في حضن امرأة تنادي بصوت جهوري على بضاعتها، وتمسح بكمّها العرق المتصبّب من جبينها وعنقها. دمعت عيناه وهو يقول للصغير: مسكين يا صغيري، تُرى كيف ستتحمّل قدرك؟!

أخذ جبينه يتصبّب بعرق بارد وهو يتأبّط البطيخة بيد، ويحمل كيس البامية باليد الأخرى. وجد نفسه يفكّر بسلاسة لم يعرفها من قبل في حياته، منطلقاً من فكرة موته التي ستكون حلاً عادلاً ومثالياً للجميع. سيأخذ جهاد مائتي الألف، وينطلق بمشروعه في صناعة الشموع التزيينية. سيمكنه أن يحقّق أرباحاً معقولة تمكّنه من الاستقلال بمعيشته عن أمّه وأخيه الأصغر. أما تقاعده فسيؤول لزوجته وابنه الأصغر، وسيمكّنهما من أن يؤجّرا غرفة من البيت لطلاب الجامعة كما كانت زوجته تريد أن تفعل لتزيد الدخل. سينام الأصغر في سريره بعد موته، وستؤجّر زوجته غرفة الأولاد... وسيبكون بدموع ينقصها الصدق على أب كان يمكنه أن يعيش تراكماً زمنياً ذليلاً. لم يستطع أن يخرج منديلاً من جيبه ليمسح عرقه الذي أخذ يسيل بشكل خيوط دقيقة تتدلّى من فروة رأسه مخترقةً حاجبيه، واصلةً حتى ذقنه وعنقه. كان دواراً خفيفاً قد أخذ يصيبه، اعتقد أن سببه الازدحام والروائح المقزّزة

للقمامة والخضار المتعفّنة وأمعاء الحيوانات. لكن وخزة ألم مفاجئة أحسّها كالطعنة باغتته في رئته اليسرى جعلته يترنّح لحظات مقاوماً قدر استطاعته سقوط البطيخة وكيس البامية. مشى خطوات متعثرة إلى الأمام كأنه يتبع مركز ثقله. تلاحقت أنفاسه وهو يحاول رسم ابتسامة على وجهه مخاطباً نفسه بأرقّ لهجة تحدّث بها في حياته: إنها النهاية، إنها نهاية الشقاء...

صرخ بعض المارّة... «سقط الرجل». تهاوى كأنه يسقط من غيمة، فيما تدحرجت البطيخة من يده مبتعدةً، واصطدمت بعامود الكهرباء المعدني المتين، منفجرةً عن نزيف أحمر، محبوس منذ زمن بعيد داخل قشرة سميكة من القهر. كانت أطيافاً سريعة تمرّ أمامه، وجوه أشخاص أحبّهم وأهداهم عمره، وجوه أصدقاء تسامر معهم ساعات وساعات، رؤوس عجول مقطوعة ومسلوخة، «مشفى الأحذية»، صور الطبيب بتحذيراته الكئيبة. لكن الصورة الأخيرة التي تجمّدت في خياله قبل أن يتقاعد قلبه عن العمل كانت صورة طفلٍ غاف في حضن أمّ تقرفص على رصيف الحياة تبيع الجبن لتطعم صغارها.

كانت خيوطاً من دمٍ تسيل من أنفه وأذنيه، وهو يسأل الحياة سؤاله الأخير:

ترى ما مصير هذا الصغير الغافي في حضن أمّه؟!!

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

١١

البلهاء

بعد يومين من زفاف وحيدها، وُجدت تيريزا البلهاء ميتة تحت شجرة السنديان الهرمة الوحيدة في الحديقة الصغيرة قرب بيتها، تحديداً الغرفة الحقيرة التي عاشت فيها ربع قرن مع ابنها.

اختلفت الآراء حول وفاة تيريزا البلهاء. منهم من رجّح أنها انتحرت، مستحضرين فرويد إلى أذهانهم الذي سيعتبر - كما يحلو لهم أن يفسّروا - زواج ابنها نهاية لحياتها من جهة، وتكثيفاً شديداً للحادثة التي صبغت مستقبلها إلى الأبد، حين حملت بابنها وهي في الرابعة عشرة، وتنصّل الأب من الاعتراف بأبوته للجنين. واعتقد بعضهم أن تيريزا البلهاء توفيت بسرطان الثدي الذي تعاني منه منذ سنوات، وترفض العلاج. أما ابنها الذي بكاها بدموع من نار، فكان يهذي وسط دموعه بأنها توفيت من الحزن، وبأن الحزن حين يزيد عن حدّ معيّن يصبح قاتلاً.

لم يشيّع تيريزا البلهاء إلى مثواها الأخير سوى نفر قليل من الناس. أختاها الوحيدتان دون زوجيهما، اللذين كانا متبرئان من

تيريزا الساقطة، ابنها وزوجته، ومالكة الغرفة التي استأجرتها تيريزا لتعيش فيها مع ابنها.

التصقت بتيريزا صفة البلهاء مذ كانت في الرابعة عشرة. كانت كبرى إخوتها، ومسؤولة عن العناية بهم لأن أمها مضطرّة للعمل من الصباح وحتى المساء خادمة في البيوت لتعيلهم، فيما والدها هائم منذ سنوات في مصحّ للأمراض العقلية.

كثيراً ما حلمت تيريزا بزيارة والدها، لكن أمها كانت تزجرها كل مرة، تنهاها عن ذكره. فما كان من هذا النهي القاسي إلا أن يزيد اضطرام أشواقها وأفكارها نحو والدها. كان غيابه يجعل حبها له شفافاً ونقياً لا تشوبه كلمات البشر الفظّة القاسية، ولا تصرفاتهم الخالية من الرحمة. وكثيراً ما كانت ترنو إلى البعيد وتتخيّل أنها تركض مسافات ومسافات لتلقي بجسدها في حضنه، فيضمّها بقوة إلى صدره وتمتزج دموعهما، وهو يعدها أنه لن يتركها أبداً. . .

كانت صديقاتها يسخرن منها حين يضبطنها تبتسم وتبرطم بكلمات وحدها، فيقلن لها: المجانين فقط يتحدّثون مع أنفسهم، لكنها كانت تبتسم ولا تُعلّق بكلمة. فهي تحب صديقاتها من كل قلبها حتى لو سخرن منها وتهامسن بأنها بلهاء. ما كانت تفهم فن الكذب، ولا فلسفة الغش. إنها تُعبّر عن كل ما تحسّه بالقول والفعل وعلى الملأ. ما كانت تفهم لماذا يداري الناس سلوكهم، ولماذا يكونون بعدّة أقنعة!

ذات يوم حين زارتهم جارتهم، أدهشها ترحيب أمها الحار

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بالمرأة، فانبرت تيريزا تقول بسذاجة: أمي، أليست هذه جارتنا التي تقولين عنها بخيلة وثرثارة ولا يهمّها سوى اصطياد زوج ثري لابنتها؟

انقطعت العلاقة بين المرأتين بسبب تيريزا البلهاء، ورغم العتب القاسي الذي تعرّضت له تيريزا من أمها، فإنها لم تفهم لماذا اعتبرت مذنبة؟! بقيت على تساؤلاتها الساذجة: لماذا لا يقول الناس كل شيء أمام بعضهم، لماذا يكذبون؟ وما معنى الكذب؟

فرحت بجسدها اللدن الرشيق، الذي أخذ يتكوّر، ويشع حرارة جديدة، أشبه بتيارات مائية ساخنة تدغدغ جلدها وأحشاءها. كانت تضحك لصورتها في المرآة، وهي تكتشف تلك المشاعر اللذيذة، وتتساءل: لماذا لم تشعر بها من قبل؟ كانت تقضي ساعات تتأمّل نهديها الشامخين، وتمرّر يديها على وركيها وبطنها وفخذيها، منتشية بالتحوّل الجميل والمدهش في جسدها. كانت مزهوّة بتفتّح أزهارها، بالثمار اليانعة الشهية التي ترغب أن يتحلّب الناس ليتذوّقوها، وكانت تبكي بدموع سخية وهي تسمع أغاني عبد الحليم حافظ الذي احتلّ أحلام يقظتها التي لا تنقطع إلا عند الضرورة.

في الثالثة عشرة سقطت تيريزا في شرك الحب. كل الحارة شهدت حبها للشاب الجميل الذي يقود سيارته الفخمة البيضاء. ودون أن تتلفّت خائفة وأمام العيون المتلصّصة من الشقوق والثقوب، كانت تيريزا تركض إلى حبيبها، وتجلس بجانبه في

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

السيارة ليأخذها إلى الشقة التي استأجرها لغرامياته.

دُهشت تيريزا حين انفضّت عنها صديقاتها، وصرن يرمقنها باحتقار ويتهامسن حين تمرّ بجانبهن. كانت تتساءل بدهشة وحزن: لماذا تغيّرت نظراتهنّ؟! ما كان لها أن تفهم أبداً نظرة الاحتقار، فهي لم تختبر هذا الشعور، ومادة روحها النقية غير مؤهبة للإحساس به.

أخذ بطن تيريزا يتكوّر، ويزداد حجماً. أدهشها أنها غدت بدينة، مع أنها لا تأكل زيادة عن عادتها! وبأن تنورتها الوحيدة ما عادت تحيط بخصرها. حتى الشهر الخامس لم تلحظ الأم حمل ابنتها. في الواقع لم تكن تراها، لأنها تعود إلى البيت حطام امرأة متهالكة من التعب، تمسح أولادها بنظرة، وتغطّ في النوم، تاركة صغارها يكبرون برعاية تيريزا البلهاء والعناية الإلهية، وصدقات الجيران.

ذات يوم تحلّقت صديقات تيريزا حولها وسألنها: تيريزا، ألا تلاحظين أن بطنك يكبر؟ ويتغامزن وينفجرن ضاحكات.

فتلمس تيريزا بطنها متعجّبة وتقول: أجل إنه يكبر.

فيسألنها: تيريزا من والد الطفل؟!

تحملق تيريزا في وجوههن وتتساءل بدهشة طفولية: طفل أي طفل؟!

تقول إحدى صديقاتها: مَن تعاشر رجلاً تحمل بطفل.

كانت تيريزا تفسّر كبر بطنها بسبب انقطاع الطمث، فالدم

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

يتجمّع في الداخل، ويجعل بطنها يكبر. كانت مقتنعة كلياً بهذا التحليل الدقيق لكبر بطنها، ولم تكن تقلق. فذات يوم سيتدفّق كل هذا الدم إلى الخارج ويعود بطنها إلى حجمه الطبيعي.

ضربتها أمها بوحشية وهي تسألها: منذ متى تعاشرين هذا الكلب؟ وكانت تيريزا تبكي وترتعش ولا تتفوّه بكلمة. استدعت الجلّادة القابلة لتكشف على ابنتها، وبعد الفحص رفعت القابلة عينين زائغتين بالدهشة وأدلت بتقريرها: الفتاة حامل في شهرها الخامس، لكنها لا تزال عذراء!!

اقتحمت أم تيريزا منزل الشاب الثري وواجهت أسرته بحمل ابنتها. طُردت الأم واختفى الشاب عن الأنظار. استدانت الأم المنحوسة - كما غدا اسمها في الحارة - المال، وأقامت دعوى على الشاب لتضطره للزواج من تيريزا والاعتراف بابنه، لكن الشاب نفى أبوّته للطفل، وقال في المحكمة بأن تيريزا عاهرة وتعرف الكثير من الرجال غيره، وذكر أسماء خمسة من أصدقائه وأصدقاء والده على أنهم عشّاق لتيريزا. وأصرّ على استدعاء هؤلاء العشّاق وسماع شهاداتهم بتيريزا، عارفاً أنهم سيذكرون جميعاً الوحمة البنفسجية فوق عانة تيريزا بقليل!

وحين واجه محامي تيريزا المحكمة بتقرير طبي يثبت أن تيريزا لا تزال عذراء، وبشهود من الجيران، يؤكدون أن الفتاة لم تخرج سوى مع الشاب الثري، استمرّ الأب في نكرانه، وانتهت الدعوى بأن دفع الشاب مبلغاً كبيراً لصاحب السيادة كي يُبرَّأ من أبوة الطفل الذي تحمله البلهاء في بطنها.

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

كان على تيريزا أن تعرف دفعة واحدة معنى الألم والتخلي ونبذ الناس لها واحتقارها، الذي أحسّته يؤلمها كوخز الإبر. كان عليها أن تعرف دفعة واحدة معنى الوحدة وموت المشاعر البكر الطاهرة التي كانت تدفعها لتأمّل جسدها بافتتان وللارتماء في أحضان الحبيب مكتشفة جسدها في جسده، وسعيدة بأن يكتشف جسده في جسدها.

انقضّت كل تلك المشاعر الوحشية القاسية على تيريزا، وأحاطتها كدائرة من نار وهي تتمخّض معانية آلاماً لا تطاق، بينما لا تسمع كلمة واحدة تؤاسيها من أمها، أو القابلة. فمن يواسي فتاة حملت سفاحاً؟ لكن تيريزا البلهاء غدت أمّاً بطرفة عين، ولدت إنسانة جديدة في اللحظة التي قذف رحمها ابنها.

خلال أشهر شاخت الصبية ذات الأربعة عشر عاماً. ماتت شهوتها للرجل وتحوّلت إلى جرح سيظلّ مفتوح الشفتين مدى الحياة، وضاع ذلك الشعور البهي المتوّهج الذي لا تعرف أن اسمه الشهوة في غياهب الإهمال. أعطت روحها وكيانها لوحيدها، صار دنياها وعالمها.

كانت ترتعد من قسوة النظرات ووحشيتها فتهرب إلى دنيا صغيرها. إنه الكائن الوحيد الذي يُحبها ويقبّلها، ويقبّلها كما هي. وحده لا يصدّق أنها زانية.

كبر الصغير وكان صورة طبق الأصل عن والده. حاول البعض ممن يحتفظون ببقية رحمة في قلوبهم أن يصحبوا طفل الزانية إلى والده، ليفحموه بالشبه بينهما. لكن الأب استمرّ في

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

النكران، وتزوّج من فتاة من سويته المالية وأنجب ثلاث بنات. لكن حرقة الصبي ظلّت تلاحقه. فكان يقول في سرّه، أيُعقل أن أنجب ثلاث بنات في الحلال، فيما الصبي لا أنجبه إلا في الحرام؟

استطاعت تيريزا البلهاء أن تنتزع شفقة الناس بعد سنوات وليس احترامهم. فالكل يشهد كم أحبّت طفلها. ظلّت تحمله حتى العاشرة من عمره. كانت تقضي ساعات بجانبه تتأمّله وهو نائم، تغني له أغاني عبد الحليم بصوتها الهامس العذب، وتمسح دموعها الخرساء. ما عادت تتذكّر أنها أنثى. انحفر الرجل في ذاكرتها مدية تطعنها في الخلف. كانت دروس الحياة المبكرة والقاسية قد جعلتها تفقد أدنى رغبة في المقاومة. كان الاستسلام التام لكل ما جرى معها هو الحل الأكثر رحمة وتحمّلاً بالنسبة لها، وقد قاومت بضراوة محاولة العديد من الشبان جعلها عشيقة. حتى أن أحدهم قال لها غير مصدّق أنها لا تنوي معاشرة أي رجل: إلى متى ستتظاهرين بأنك شريفة، وقد تعوّدت أن تباعدي بين ساقيك مذ كنتِ في الثالثة عشرة؟

تعوّدت تيريزا على ابتلاع الإهانات، واستمرّت تقبر الأيام يوماً بعد يوم، لا يعنيها سوى ابنها، وتمكّنت بواسطة جارتهم الوحيدة التي تشفق عليها، من الحصول على عمل في مؤسسة لبيع الخضار، وفي أوقات فراغها المستفيضة كانت تيريزا تبدع كنزات صوفية رائعة تبيعها وتساعد نفسها على العيش.

الصغير غدا كبيراً حين عاين جرح أمه، باحت له وهي ترتعد

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

من شعورها بالعار مَن يكون والده. سربلهما صمتٌ طويل لم تجرحه كلمات لأيام. كانت تعاني آلاماً لا تطاق، وتخشى أن تفقد احترام الرجل الوحيد في حياتها. لكنه بعد أيام دفن رأسه في صدرها قائلاً: أنتِ أروع أم في الدنيا. لكم أحبّك يا تيريزا الرائعة، أما هو فأكرهه، أنا لا أب لي.

كم كانت صادقة حين قالت له: لا تكرهه يا بني، لا تجعل الكره يعكّر روحك.

كانت تيريزا تعاني من اشمئزاز شديد حين ترى رجلاً وامرأة يتغازلان على شاشة التلفاز. ظلّت أسيرة مشاعر الإثم طوال حياتها، وساعد موقف أخواتها من رسوخ هذه المشاعر. فبعد زواجهن انقطعن كلياً عن زيارتها. فهمت من غير أن تسأل أن أزواجهن يمنعونهن من زيارة الأخت الآثمة التي أنجبت من غير زواج.

حين بلغ ابن تيريزا السادسة عشرة، فوجئت بعناية زائفة من أمها وجارتهم، ليقنعوها بالزواج من أرمل يعيش في الأردن. أكّدتا لها أن هذا الزواج هو الوحيد القادر على إعادة الاعتبار ونفض الغبار عن كرامة تيريزا المعفّرة في وحل الإثم منذ سنوات. فالرجل سيسجّل ابن الحرام على اسمه. رفضت تيريزا بقوة وقالت بأنها لا تطيق الرجال ولا تستطيع أن تقرب رجلاً. لكن الأم والجارة أقنعتاها بأن زواجها سيحوّل ابنها من ابن حرام إلى ابن شرعي وبأنها يجب أن تضحّي في سبيل ابنها.

قبلت تيريزا الزواج من الكهل، سافرت معه إلى عالمه

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

الغريب، منتظرة اللحظة التي سيسجل فيها ابنها على اسمه. لكنه أخذ يتملّص، بدا لها واضحاً منذ البداية أنه يريدها خادمة، بل عاهرة. كان يجبرها على لبس ثياب داخلية خليعة، ويطلب إليها أن تقوم بحركات معينة، ويضربها كي تشاهد كل يوم العديد من الأفلام الجنسية الخليعة لتتعلّم فن ممارسة الجنس. لم تستطع تيريزا الاحتمال، هربت منه بعد أن قال لها بأنه يستحيل أن يسجّل ابن الزانية على اسمه، وبعد أن صرخ في إحدى فورات غضبه: يا قحبة كنت أظنّك تعرفين فنون إرضاء الرجال، فإذا أنت تيريزا البلهاء حقاً.

عادت تيريزا إلى غرفتها الضيقة تنشر أحزانها على الجدران، واستأنفت حلمها الشاق الوحيد بأن يدخل ابنها كلية الهندسة. وأخيراً ابتسمت، هي التي نسيت الابتسام، حين حصل ابنها على لقب مهندس، وخطب زميلة له في الجامعة، وترك أمه تعيش وحيدة مع ذاكرة شوّهتها الآلام.

تحوّلت تيريزا إلى إنسانة شبه خرساء. كانت تقضي أياماً لا تنفتح شفتاها عن كلمة. الجملة الأخيرة التي تفوّهت بها قبل وفاتها بيومين لجارتها: أحسّ أن حياتي سراب.

القلّة الذين شاهدوا جثة تيريزا تحت شجرة السنديان الهرمة، انتابهم إحساس واحد بأنها كانت تحلم. ثمة ابتسامة ترفرف على وجهها، وسرب أحلام يطوف حول عينيها. ترى بماذا كانت تحلم تيريزا البلهاء قبل أن تسلم الروح؟!

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

12

فاطمة

لم تستوقفني فاطمة لأنها طفلة تتسوّل، فقد اعتدت رغماً عني على منظر المتسوّلين الأطفال يداهمون المارة في الأزقة والشوارع، ليشعرونني كل مرة كم أن للحياة طعماً رديئاً. لكن فاطمة التي لا يتجاوز عمرها عشر سنوات كما قدّرت، شلّت تفكيري، واستقطبت أحاسيسي، وجعلتني أشعر كلما التقيتها أو زارتني في مكتبي أن صرخة خرساء تمزّق قلبي.

من اللحظات الأولى استفزّتني تلك المتسوّلة الصغيرة، إذ لم أتوقّع أن أجد متسوّلاً شديد الاعتداد بنفسه كفاطمة. فهذه مهنة الذلّ والانكسار، لكن فاطمة تملك إحساساً فطرياً عالياً بكرامتها الشخصية. إنها لم تسمع عن الكرامة، ولا تعرف ما هي، لكنها تملكها في داخلها. كمن يملك جوهرة يجهل قيمتها.

سيطرت عليّ تلك الطفلة وأملت شروطها. كنت جالسة في مكتبي أنعم بدفء الشوفاج وأتلذّذ بفنجان قهوة يساعدني على تحمّل جرعات الإحباط اليومية التي تقدّمها نشرات الأخبار، ومن

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

حين لآخر أهرب بنظري من شاشة التلفاز إلى النافذة لأتفرّج على الأمطار الهائجة التي سقطت بعد احتباس طويلاً، كدموع مخنوقة فاضت بها الروح أخيراً.

دخلت عليّ فاطمة أشبه بفزّاعة عصافير. هيكل عظمي لطفلة تكسوه أسمال بالية فضفاضة ومن حذائها المهترئ تظهر أصابع قديها القذرة المزرقّة من البرد. دخلت منتصبة القامة، ترسم ابتسامة متعبة على وجهها الطفولي المدبوغ بالإعياء والألم رغم نضارته. أدهشني امتلاء وجهها مقارنة مع نحولها الشديد. كان شعرها المقصوص بطريقة مشوّهة مبلولاً ويقطر ماءً على رقبتها وكتفيها. تحمل في يمناها كيساً أسود. سألتني بصوت واثق لا يحمل أي نغمة استجداء:

- هل تشترين هذه الكنزة؟

أخرجت كنزة خضراء عتيقة من الكيس، وعرضتها عليّ بطريقة نزقة، عارفة أني لا يمكن أن أشتري هذه الخرقة.

لم أستطع أن أصرفها. علاقتي مع المتسوّلين الصغار كانت بالهروب منهم. أسرع بإعطائهم النقود أو أسرع خطواتي كي يفهموا ألا يتبعوني ويتعبوا أنفسهم. ما كنت أتحمّل مظهرهم الرثّ، فقلبي طافح بأنواع كثيرة من الغمّ والقهر.

لكن فاطمة فرضت نفسها عليّ بطريقة غامضة، أجبرتني أن أراها بقلبي. أسرتني تلك المفارقة في شخصها، فتلك المتشرّدة الصغيرة، البردانة والجائعة والمهملة، شبه الحافية، تملك كرامة

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

متحدية واعتداداً حقيقياً بنفسها. هل أردت أن أحلّ لغز النظرة؟

سألتها: من أنتِ؟

أجابت: فاطمة.

- ولِمَ تتسوّلين يا فاطمة؟

هزّت كتفيها ساخرة من سؤالي، ابتسمت كاشفة عن أسنان مصفرّة.

سألتها: ألم تذهبي إلى المدرسة؟

- أجل وصلت حتى الصف الخامس.

- ولِمَ تركت المدرسة يا فاطمة؟

بصوت بالغ الحياد أجابت: أخرجتني أمي كي أعمل.

- أهي التي تدفعك للتسوّل؟

- أجل.

كنت أحدّق بها كحالة للدراسة، كنموذج خاص لمتسوّل. كانت عيناها الواسعتين العسليتان تحدّقان بوجهي بنظرة نقية صافية تستحثّ محبتي إنما ليس شفقتي.

نظرتها تعني: لا تنظري إليّ نظرة فوقية، لا تهينينني بشفقتك، فأنا إنسانة مثلك، لكن ظروفي صعبة.

وجدتني أعطيها مبلغاً من المال، ليس لإرضائها وإرضاء ضميري، إنما لغاية أكثر تعقيداً. فقد أردت - أنا التي وقعت تحت سطوتها - أن أسيطر عليها بهذا المبلغ الذي لم تحلم به.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أخذت المال ببساطة ودسّته في بنطال واسع تحزمه بشريط ثخين، ابتسمت لي شاكرة، وعادت تمسح وجهي بحنان بعينيها الصافيتين.

سألتها: احكِ لي عن أسرتك، أمك، أبيك؟

قاطعتني: والدي توفي منذ عامين بالسرطان لديّ أربع أخوة يصغرونني.

- وأمك، ماذا تعمل؟

- لا شيء.

- وكيف تعيشون؟

رفعت كتفيها بلامبالاة، وقالت: الله يعيننا، أحياناً الأقرباء يرسلون لنا طعاماً. أغاظتني تلك الطفلة بمظاهر الرضى التام لواقعها، كأنها لا تخجل مما هي فيه، من نذالة أمها وبؤس طفولتها. أحسستها تريد أن تحب الحياة مهما كانت قاسية عليها.

قاومت مشاعر غيظي وتابعت الحوار معها:

- هل تعرف أمك أنك تدورين من مكتب إلى مكتب تشحذين المال؟

- أجل.

- ألا تخشى عليك من اعتداء، أو تحرّش أو خطف أو...

قاطعتني: لا أعرف، لا أظن.

- متى تخرجين من البيت؟

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

- منذ السابعة صباحاً.

- ومتى تعودين؟

- أعود بين الثامنة والتاسعة مساءً.

- وأين تقضين كل هذا الوقت؟

هزّت كتفيها مستخفّة بسؤالي قائلة بثقة واعتداد: أشحذ.

لم تشعر فاطمة أن هناك ما يهين في التسوّل. وجدت نفسها محشورة في زقاق الفقر، محاصرة مع أخواتها في فم غول اسمه الجوع.

- وهل تجمعين مبلغاً جيداً؟

- ليس دوماً.

- ما أكبر مبلغ جمعته؟

- ذات يوم جمعت سبعمائة ليرة في اليوم.

فكرتُ أنه دخل موظف خلال أسبوع؟!!

فجأة لم أعد قادرة على محادثتها. شعرت أن وادٍ سحيق يفصلني عنها ويفصلها عني، لا يمكنني عبوره مهما دفعت لها مالاً. يبدو أنها شعرت أني لم أعد قادرة على تحمّل وجودها، وبأنها تسبّب لي الضيق، فحملت كيسها وهمّت بالانصراف.

استوقفتها لأعطيها قالب شوكولا. امتدّت يدها النحيلة كغصن مقطوع تأخذه مع نظرة امتنان، لكني لم أشعر بلهفتها لتذوّقه. قلت لها: كليه يا فاطمة.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

قالت: لا. سأخبئه لأمي فهي تحب الشوكولا.

وددت لو أصرخ بها: وهل تستحقّ أمك أن تحبيها؟

لكني كبحت صراخي، ونفثت سموم حقدي في وجه طفلة بريئة من مصيرها:

- هل تحبين أمك التي ترميك في الشارع يا فاطمة؟

حدّقت بي بعينين زائغتين زفرت همّاً يضيق بها صدرها الطفولي وقالت: كيف لا أحبها، إنها أمي. كرهت نفسي لأني سبّبت لها الألم. وحين استدارت لتنصرف، تأمّلت عظم نقرتها وعظام كتفيها وأضلاعها التي تشفّ من كنزة فضفاضة مهترئة. رجليها أشبه بعودين يابسين، لكن مشيتها شامخة، كأنها لا تريد أن تنهزم أمام نحولها وبؤس طفولتها.

تركتني فاطمة مستنفذة بذكراها لأيام. التصقت هذه الطفلة بمشاعري، وأحسستها تريد أن تعطي مغزى آخر لأيامي، إذ أحسّ بحضورها وأنا في السيارة. فأتخيّلها هائمة في الشوارع، تفاجئني ترنو إليّ بعينيها الواسعتين العسليتين، وأنا آكل طعامي الشهي المدروس جيداً على الفيتامينات والسعرات الحرارية، أحسّ بجوعها المكابر.. بلبلت مشاعري تلك المتسوّلة الصغيرة، فما عدت أعرف هل أرغب بلقائها أم لا.

لكني بعد أيام فرحت حقاً حين أطلّت عليّ كشبح طفلة يتقدّم نحوي بثبات لم أكن أعرف أن حميمية خاصة ولدت بيني وبينها. استقبلتها كأني معتادة على استقبالها دوماً. لكنها سمّمتني بالغضب

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

حين قالت لي بابتهاج حقيقي: كم فرحت أمي بقالب الشوكولا. كنت أريدها أن تكره أمها، وأن تعرف أن تلك الأم سيئة لأنها تدفع بطفلتها للتسوّل. كنت أطلب من طفلة لم تتعلّم الكره بعد أن تعكّر صفاء روحها وتكره، وتفهم قوانين استغلال الأطفال والإساءة إليهم، وأن تتمرّد على مصيرها وتحاكم أمها، وبالتالي مجتمعاً بأكمله ينتهك طفولتها.

سألتها بحنق: كان يجب أن تأكلي الشوكولا أنت!

- لكن أمي تحبّ الشوكولا كثيراً.

- أمك هذه غريبة، كيف ترمي بك في الشارع لتتسوّلي؟

كنت أشعر كم ينقل الصوت شحنات الحقد المسمومة، كم استاءت من غضبي الذي لم تتوقّعه لأنها دخلت مكتبي بلهفة المشتاق، فلم تتوقّع عجرفتي. أعطتني فاطمة درساً لن أنساه في أن العجرفة دليل الجهل. ماذا أعرف أنا عن هذا القاع الذي تعيش فيه فاطمة كي أنظّر عليها وعلى أمها؟!!

كبحت غضبي وأعطيتها المال، فأخذته وهي تشيح بعينيها عني بنظرة انكسار. وجدتني أرقّ للحال وأطلب إليها أن تقترب مني. تركت الكيس الأسود الذي لم أسالها ماذا يضم، واقتربت مني، احتضنتها. ياه كم هي نحيلة، إنها بالكاد تملك قواماً!

سألتها: ألا تأكلين يا فاطمة؟

- أجل، آكل مساءً حين أعود إلى البيت.

- وأثناء النهار؟

- نادراً ما آكل، أحياناً إذا اشتدّ عليّ الجوع، أشتري فولاً.

- لكن كيف ستكبرين وتصيرين صبية إن لم تأكلي؟

أدارت جذعها بطريقة تعمّدت أن تلصق خدّها بخدّي، قالت لي كأنها توشوشني:

- حكيت لأمي عنك.

- وماذا قلت لها؟

ضحكت: قلت كلاماً جميلاً.

سألتها: لِمَ لا تحاول أمك أن تعمل؟

- لا أعرف، إخوتي صغار، كيف ستتركهم؟

- ووالدك ماذا كان يعمل؟

- سائق باص.

- أكان موظفاً؟

- أجل.

- ألا تقبضون راتبه بعد وفاته؟

- تقبض أمي نصف راتبه، أي ألفي ليرة.

ألفي ليرة! لا تكفي ثمن خبز تسدّ به أرملة أفواه أطفالها الخمسة!

أعدت سؤالي الغبي: أتحبين أمك يا فاطمة؟

كأني توقّعت هذه المرة أن تصارحني بالحقيقة وتقول: لا.

نظرت إليّ بعتب وتساءلت: هل يوجد إنسان لا يحب أمه؟ كانت

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أمها انتماؤها ودنياها، كانت وطنها. أليس للوطن وجه أم؟ لم أعرف كم أن فاطمة تحب أمها إلا بعد شهر من تردّدها عليّ، يوم قرّرت أن أكتب رسالة لتلك الأم - عساني أحثّها أن ترحم ابنتها من حياة التسوّل، وأحرّض فيها نخوة البحث عن عمل لإعالة أولادها. لم أتردّد بشأن الرسالة، لأن ذلك اليوم كان مشحوناً ببؤس فاطمة فوق قدرتي على الاحتمال. كنت قد التقيتها صباحاً وأعطيتها مالاً على عجل، وعند الظهر كانت عاصفة قوية تهبّ بجنون مقتلعة بضعة أشجار، ومسقطة عموديْ كهرباء. كنت غاطسة في معطفي، أوصي سائق التكسي أن يكون حذراً من جنون العاصفة، حين لمحت عرضاً فاطمة كشبح تقف عند مدخل أحد البنايات، تحمل الكيس الأسود بيد وتنفخ على يدها الثانية لتتدفّأ. كنت في مكان بعيد عن مكتبي. تساءلت بدهشة: هل تصل فاطمة إلى هذه الأحياء؟ هزّني منظر المتسوّلة بقوة، ولم أستطع الاسترخاء طيلة النهار. ولعظيم دهشتي زارتني في يوم جنون الطبيعة مساءً في مكتبي، فانفجرت بها بلا شفقة: ألا زلت خارج البيت؟ كيف تتجوّلين في الشوارع والعاصفة...

لكني لم أستطع أن أكمل كلامي الذي انقطع فجأة أمام دموع عينيها، دموع بسبب البرد. أسرعت تلتصق بالشوفاج، تقبض على قضبانه بأصابعها الصغيرة المحمرّة، وتمسح بكمّ كنزتها أنفها الذي يسيل، وتقول لي متجاهلة استنكاري: ياه، البرد فظيع اليوم.

سألتها بسخرية: وكيف كانت الغلّة اليوم؟

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

ردّت ببساطة مسالمة: ليست سيئة. جمعت مائة ليرة لأمي.

انفجرت لدى سماعي كلمة أمي، تلك المجرمة. عند هذا الحدّ قرّرت أن أكتب لتلك الأم رسالة. لا أذكر تماماً ماذا كتبت، لكن كلماتي كانت قاسية، لدرجة أن وجه فاطمة غام وراء غيمة حزن، عكّرت ملامحها العذبة. لأول مرة شعرت كم هي مشوّشة بالخوف وعدم الأمان. قطّبت وهي تنظر إليّ بعتب وألم، لكنني ألححت عليها أن تعطي أمها الرسالة، وأن تطلب إليها أن تزورني. كنت أريد أن أتفرّج على تلك الطينة من الأمهات اللاتي يدفعن أولادهن إلى فم الغول. أخذت فاطمة الرسالة وانصرفت، لكني فوجئت وأنا أغلق باب مكتبي أنها مزّقت الرسالة وألقت بالقصاصات عند بابي بتحدٍّ واحتقار. كتمت غيظي وقرّرت أن أحذف تلك المتسوّلة من حياتي، فلا يمكنني أن أقدّم لها شيئاً. وفعلاً تجاهلتها خلال أسابيع، لكني تنبّهت أنها هي التي بدأت تتجاهلني. فلم تعد تزورني، وتبتعد عني حين تصدفني في الشارع. سخرت من نفسي واعترفت أني أسأت لهذه الطفلة، فأنا أشجّعها على التسوّل حين أعطيها المال بطريقة لا تحلم بها.

صرت أتفرّج عليها وهي تدور في الشوارع حاملة الكيس الأسود، تسير بقامتها الضئيلة الشامخة دوماً. شيء ما يضحك ويبكي في منظر تلك المتسوّلة المعتدّة بنفسها. أراها جالسة على درج، أو تقزّز لب دوّار الشمس، رفاهيتها الوحيدة ربما، تتفرّج على الحياة حولها بعينيها الواسعتين الصافيتين. لا أذكر أني رأيت عينان بصفاء عيني فاطمة. لم أرها مرة تأكل.

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

لكن فاطمة ظلت الغائبة الحاضرة. تركت بصمتها في روحي ومضت، بقي جزء منها في فضاء مكتبي يحفّ بي على الدوام. حاصرتني نظراتها الصافية التي تنجح دوماً في مداراة ألم أكبر من سعة صدرها النحيل. سجنتني في عسل عينيها. ياه ليس هناك من سجن أصعب من سجن العيون.

حاولت إقناع نفسي أن فاطمة وأمثالها أمر واقع يجب تقبّله، كما نقبل رغماً عنا مظاهر انتهاك كثيرة. الأذى الذي يحدثه فينا منظر المتسوّلين الأطفال، يشبه الأذى الذي نحسّه حين نرى سيارات فارهة يقودها لصوص يمصّون دم الشعب. وجهان لعملة واحدة، كما أقول لنفسي.

لم أكن أعرف إلى أي حدّ تغلغلت في روحي تلك الطفلة إلا بعد أسابيع طويلة من القطيعة بيننا، حين كنت أنتظر اللحّام يدقّ لي قطع اللحم لتصير شرائح رقيقة. كنت أقف خارج الدكان هرباً من رائحة اللحم النيئ، فجأة لمحت في زجاج الواجهة صورة فاطمة على الرصيف المقابل، ترنو إليّ بنظرة لانهائية. لم أستدر ولم أقم بأية حركة. كانت تقف مستمرة بالنظر إليّ، بشوق وعذوبة. صرت بدوري أحدّق بها من خلال الواجهة الزجاجية لدكان اللحام.

تنبّهت أنني أدير لها ظهري، فيما هي تفتح لي صدرها بمودّة إنسانية هائلة لم أشعر بمثلها في حياتي. كانت أعيننا تتلاقى من خلال الزجاج في نظرات لانهائية. نظرة لا يمكن وصفها إلا أنها نظرة إنسانية، نظرة إنسان لإنسان، كأنني أتعرّف على نفسي من

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

خلالها، وتتعرّف على نفسها من خلالي. هزّني الشوق لتلك الطفلة ودفعني للاستدارة نحوها. كانت نظرة فاطمة قادرة على الوصول إلى نخاع روحي. لم نتكلّم ولم نلوّح لبعضنا. عبرت الشارع العريض بمشيتها الواثقة وتركت جسدها النحيل يرتاح بين ذراعي. مسحت على شعرها الأجعد القصير جداً، وقلت لها مدارية دوامة مشاعر تأثر تعصف بي: ماذا فعلت بشعرك؟

ضحكت: قصّته لي أمي.

- لكن لِمَ قصّته بهذه الطريقة؟ لقد شوّهتك يا فاطمة؟

ضحكت بتسامح: كي لا يتحرّش بي أحد.

سألتها مازحة كي أداري تأثّري: ما أخبارك يا فاطمة، أما زلت تفتلين الشوارع؟

- أجل.

أدركت حماقتي حين كتبت رسالة لأمها. ما أغباني! هل اعتقدت أني مصلحة اجتماعية، أو ساحرة قادرة أن أقلب بؤس تلك السرة إلى نعيم؟

أمسكت يدها فتركتني أقودها حيث أريد. كانت تلك الصغيرة مستعدّة أن تتبعني وأن تتركني أقودها حتى آخر الدنيا.

في مكتبي أعطيتها نقوداً كالعادة، وطلبت منها كما لو كنّا صديقتين، أن تريني ماذا يضم كيسها الأسود. أخرجت بنطالاً بالياً تحلم أن تبيعه، أكلت فولاً وشربت كولا، حدّثتني عن أسفها الشديد لأنها باعت مظلتها معتقدة أن الشتاء قد ولّى. ضربت كفاً

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

بكف وهي تقول: تصوّري يوم بعت المظلة بدأت الأمطار تهطل غزيرة، سأذهب إلى البائع لأستردّها.

أبديت إعجابي بحذائها الرخيص الجديد، قالت إنها اشترته على العيد.

سألتها: وهل تسوّلت في العيد؟

قالت: طبعاً، وجمعت مبلغاً لا بأس به.

حكت لي فاطمة وهي تطقطق أصابعها النحيلة، أن أمها دائمة الشجار مع أصحاب الغرفة التي يعيشون بها، وأنهم ينوون طردهم من تلك الغرفة، وبأنها لن تسمح أن تصير أمها في الشارع.

توقّدت بشرة فاطمة وتألّقت نظرتها وهي تخبرني عن قَسمها أنها لن تسمح لأحد أن يطرد أمها وإخوتها من تلك الغرفة.

حكت لي تلك الصغيرة الجبّارة عن رجل عجوز يملك دكاناً، يلوّح لفاطمة بالمال كلما مرّت قرب دكانه ويبرطم بكلام غير مفهوم. حذّرتها منه، فابتسمت لي تطمئنني أن لا داعي لتحذيراتي.

ذات مساء فاجأتني فاطمة في ساعة متأخرة. ما أن رأيتها حتى نظرت في ساعتي، قلت لها: فاطمة، الساعة تقترب من التاسعة، ألم ترجعي لبيتك بعد؟

- سأرجع، لكني أردت أن أخبرك شيئاً.

اعتقدت أن أمراً خطيراً حدث مع فاطمة أو أحد أفراد

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

أسرتها. سألتها بقلق:

- خير يا فاطمة؟

- أردت أن أقول لك أنني مزّقت الرسالة لأنني... تعثّرت بالكلام. ثم استجمعت قواها وتابعت، لأن أمي كانت ستضربني. فذات يوم أرسلت سيدة لطيفة مثلك رسالة لأمي، فضربتني بقسوة، وقالت لي: لا تتحدّثي مع الناس، واطلبي منهم المال فقط. غشى دمع حار عينيها وقالت وهي تمسح عينيها بكمّ كنزتها: طيّب أنا ما ذنبي؟

- ألهذا السبب جئت الآن؟

- أجل. طيب أنا ما ذنبي؟!

كانت تسأل الدنيا حولها هذا السؤال الأليم. لم أستطع أن أقول شيئاً سوى: معك حق يا فاطمة.

أمسكت بيدها وقلت لها: هيا آن الأوان لترجعي إلى البيت. أجبرتها أن تأكل قطعة حلوى أرادت أن تخبئها في الكيس الأسود. انتظرت الباص مع فاطمة ليحملها إلى غرفة بؤسها حيث سترتمي على فراش حقير لتنام. وقبل أن تصعد الباص التفتت إليّ وهي تضحك من قلبها. قالت:

- أتعرفين، أحبّ كلامك عني، حين تسألينني أما زلت تدورين في الشوارع.

لم أفهم ما الذي يضحك فاطمة في هذا الكلام، لعلّ أحاسيسها ملتبسة بين ضحك وبكاء. فكّرت بأيام فاطمة التي

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

تقضيها في دوران مضني في الشوارع متسلّلة إلى المكاتب تشحذ، متعرّضة لتحرّشات وكلمات لن تبوح بها لإنسان. فاطمة التي تدور وتدور بلا جدوى في شوارع مدينة تنتهكها كل يوم، باحثة عن حب دافئ، عن حلم طفولة يتبدّد يوماً بعد يوم، عن حلم يهترئ ويبلى، كتلك الأشياء المهترئة التي تضعها فاطمة في كيسها الأسود.

ترى كم يساوي حلمك يا فاطمة؟!

13

ناديا

لم يخطر ببال أحد أن الإبرة السّامة التي أُحضرت لقتل الكلب المريض ستكون وسيلة ناديا لإنهاء حياتها. كان زيكو كلباً مدللاً، يتناول طعاماً فاخراً ويخضع لفحوصات طبية دورية. لكنه حين بلغ العاشرة من عمره اكتشف طبيبه إصابته بسرطان في الأمعاء، وأجرى له عملية جراحية. لكن السرطان كان قد استفحل في جسم الحيوان فصار يتغوّط دماً ويئنّ متألماً حتى تململ منه أفراد الأسرة رغم حبّهم الشديد له. فقرّروا بعد صبر طويل - واستناداً لنصيحة الطبيب - أن يزرقوه بإبرة سامة.

في اللحظة التي أحضر فيها رب الأسرة إبرة الموت كان زيكو قد أسلم روحه. دفن في حديقة البيت، وذرفت دموع الحزن لفراقه. كان الصديق الأكثر إخلاصاً بين أصدقاء الأسرة. كان الأب قد وضع إبرة الموت على أحد رفوف المكتبة ولم ينتبه أحد أن يد ابنته التي لم تبلغ الخامسة عشرة قد امتدّت وخطفتها. سأل الأب عن الإبرة، وتلقّى جواباً واحداً. لم نرها، فاعتقد أنها

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

ضاعت.

فوجئ الجميع بعد شهر من وفاة الكلب أن ناديا الرقيقة كنسمة قد حقنت نفسها بالدواء السام وأنهت حياتها دون أن تترك رسالة لتبرير فعلتها.

كان انتحار المراهقة فاجعة مخزية لأسرتها. فالأب تاجر معروف، والأم سيدة مجتمع مرموقة حصلت على لقب ملكة الجمال وهي في العشرين من عمرها. وقد ورثت ناديا جمال أمها وذكاء أبيها، لكن قلبها الفتيّ ظلّ مختفياً بآلام لا تطاق، أكبر مما يتحمّله قلب مراهقة.

الأم المفجوعة كانت تئنّ وسط المعزّين وتتمايل على إيقاع حزنها: لم نقصّر معك بشيء يا ناديا، ماذا فعلتِ بنا وبنفسك يا حبيبتي؟

كانت الأم تشتري لابنتها أجمل الملابس، وتجبرها على الرياضة كي تحافظ على رشاقتها، وتعلّمها أساليب الغنج والدلال، وتقاوم رغبة ناديا بالقراءة مؤكدة لها أن قراءة الصحف تكفي، فلماذا عليها أن تجهد نفسها في قراءة الكتب. فتضطرّ ناديا لتقليب المجلات التي تأمرها أمها بقراءتها لتتفرّج على أحدث صيحات الموضة، وأنجح الطرق لتخفيف الوزن، والنصائح الناجحة لاصطياد زوج مليونير، وآخر صيحات الإكسسوارات. تحسّ المراهقة برغبة في المعارضة فتقول لأمها: هذه المجلات سخيفة، فتزجرها أمها ساخرة - فهي دوماً تستعمل أسلوب السخرية حين تتحدّث إليها - وتقول لها: على العكس، هذه

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

المجلات ستعلّمك كيف ستكونين سيدة بيت ممتازة، وصاحبة ذوق رفيع.

كانت الأم مولعة بالمسلسلات المكسيكية الإباحية، وتشجّع ناديا لمتابعتها. لم تكن ناديا تملك المنطق ولا الخبرة الحياتية لمقاومة أفكار والدتها، فكانت تذعن لرغبات الأم وتحسّ أنها مصلوبة أمام الشاشة التي تملك سلطة عليها أكبر من سلطة والديها. فتشعر كيف يطوّعها التلفزيون، ويبدّد ساعات يومها، وهي مسحورة بذلك الاختراع الذي يضع العالم كله بين يديها. تشعر ناديا في قرارة نفسها أنها من المستحيل أن تعرف المعنى الصحيح والصادق للأفكار التي تغزوها من الشاشة. إنها بحاجة لمرشد يرأف بها من هذا العدو اللطيف والساحر.

تحسّ ناديا باضطراب شديد مبهم من جرعات الإباحية الجنسية العالية في المسلسلات. صحيح أن رغباتها أخذت تستفيق، وأشواقها للجنس الآخر بدأت تعلن عن نفسها بخفر، لكن تلك المشاهد القاسية من الجنس والإثارة تشعرها بألم كبير، فتودّ لو تصرخ: ماما، هذه المشاهد تؤلمني. كانت تلك الصور تلاحق ناديا دوماً في أحلامها وفي ساعات شرودها التي لا يحسّ بها أحد.

لم يكن الأب أفضل حالاً من زوجته. كان منتشياً بانتصاراته في عالم التجارة، ويتباهى بمعاركه مع منافسيه. كان مصاباً بحالة من الاستلذاذ بالأنا، فهو بحالة نشوة من نجاح خططه اللاشريفة في إفلاس منافسيه. كل حديثه يدور حول كيفية سحق فلان وكسر

رأس فلان. تشعر ناديا أنها تذبل وتفقد القدرة على الابتسام وهي تصغي لحديثه. لم يسألها يوماً عما تفكّر أو تشعر، أو ماذا تقرأ، ومَن تعاشر. كل أبوّته كانت تتركّز في سؤال وحيد: هل يلزمك المال؟!

ويوم اصطحبها في نزهة على انفراد قائلاً إنه سيحدّثها في موضوع هام، طارت من الفرح وهي بجانبه في السيارة. بدأ حديثه بأنه يفكّر بمستقبلها، ويريد لها حياة مترفة. كان يتحدّث دون أن ينظر إليها. هي بدورها لم تكن تنظر إليه، بل تتعلّق نظرتها، رغماً عنها، بالسوار الذهبي الثخين بحلقاته المتراصّة، تحسّه يشبه أغلال السجين. فكّرت أن والدها عبد للذهب، وإلا لما تحمّل ثقل هذا السوار. مدّ لها دفتراً صغيراً وأمرها أن تفتحه. لأول مرة تنظر ناديا إلى دفتر البنك. قال لها متباهياً إنه وضع باسمها مليوني ليرة، وسيزيد المبلغ كل مدّة. وحين انتبه لدموع ابنته الصامتة، ضحك وهو يربت على ركبتها قائلاً: معك حق، دموع الفرح لا يمكن مقاومتها.

لم يخطر له أن ناديا تبكي حرمانها من الرقّة والحنان، وأنها تقرف عالم المال والشهوات. في الواقع كانت صدمتها بأبيها قد بدأت قبل سنتين، فقد ضبطته دن قصد منها يتفرّج باستمتاع كبير على أفلام جنسية في قمة الانحطاط، تصوّر حفلات جنس جماعي، ودعارة أطفال. حين رأت وجهه الناضح بالشهوة القذرة، بصقت كأن شيئاً لوّثها. شعرت أنها تتحجّر، وأن رئتيها تمتلئان صمغاً. كانت تختنق عاجزة عن الصراخ. تحسّ أنها

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

تتهاوى دون أن تسقط، تبحلق بفزع بما ترى. ولعظيم دهشتها، احتاجت لأيام كي تصدّق أن ما تراه حقيقة وليس وهماً. صار شعور خبيث يوقظها من نومها، ويدفعها للتسلّل إلى الشرفة حيث يمكنها أن تطلّ على غرفة والدها، وتراه مصلوباً أمام الشاشة الداعرة. طاشت حواسها من الألم وهي تتابع فيلماً عن الدعارة مع الأطفال. تساءلت وعيناها طافحتان بالدموع: هل العالم بهذا القبح والأذى؟ كم تحتاج لعون ما، عون لا يستطيع أن يقدّمه لها أهلها. حتى أخيها الذي يكبرها بخمس سنوات كان يسخر من رومانسيتها ويعجز عن فهمها. لطالما تمنّته صديقاً حاولت التقرّب منه، لكنه كان بدوره مشغولاً بذاته. فعشقه للمصارعة الحرّة ينفّرها. كانت تتفرّج عليه مبهورة كيف يتابع بشبق وشغف مباريات المصارعة الحرة، وكيف يصفّق لمشاهد إراقة الدماء ورفس الخصم بوحشية.

ذات يوم أصابتها نوبة عصبية فأخذت تصرخ وتلطم خدّيها وتقول كفى كفى، فما كان منه إلا أن زجرها وأمرها أن تلزم غرفتها، فلا أحد يجبرها على متابعة هذه الرياضة.

لم تستطع ناديا استيعاب العالم حولها، ولم تستطع روحها الرقيقة امتصاص جرعات العنف اللاإنسانية التي تبثّها الشاشة كل يوم. تحوّلت رغماً عنها إلى كائن ضعيف لا يضمّ سوى إحباطات الحب وسحق الكرامة. كانت تتوق لعالم آخر، عالم تجهله، لكنها تحسّه طالعاً من روحها، عالم تتطهّر فيه الأرواح من الشرّ والشهوات. لم يكن لها من منفذ سوى الاستسلام لجموح خيالها

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

يقودها إلى رؤى من نور وطهر ورأفة.

لم تكن نادية قادرة على فهم آلامها النفسية. لم تعد قادرة على الحلم بأن الحب هو أن يلتقي شاب وفتاة في حديقة ويداهما تتلامسان حول وردة. صار الحب حفلة تعرٍّ وصراخ أجساد بهيمية، وصار الطهر الذي تحسّه في قلبها أشبه بوشاح حرير مزّقته المشاهد المريعة للدعارة والعنف والحروب. كانت تجاهد بطاقاتها الخام العفوية لتتحرّر من وجود عنيف ولاأخلاقي، وتحنّ لروحانية غامضة تنقذها من عالم الانتهاك. لكل القيم النبيلة التي تحسّها نابعة من كيانها، كانت تذوي من أحزان روحها المحاصرة بالعنف والشهوات والدمار. تتوق يوماً بعد يوم لتصير مجرّد روح عساها تتمكّن من الفرار خارج سجن الزمان والمكان.

أسوأ أنواع الجريمة هو الإهمال. فكانت نادية مهملة رغم مظاهر الترف والدلال التي يغرقونها بها. كانت تحسد الفقراء المتحرّرين من سطوة المال.

وفي المساء الذي زرقت فيه ناديا نفسها بإبرة الموت، كانت تتنصّت إلى شجار حاد بين أمها وأبيها، وكانت هي موضوع الشجار. فالأم قرّرت أن تجري لناديا عملية تصغير صدر، كي تحقّق ابنتها المقاييس المثالية للجمال، والأب يعارض لأنه يرى جسد ابنته جميلاً ومتناسقاً. احتدّ الخلاف، وبدأ الزوجان بتبادل التهم، فاتّهم الزوج زوجته أنها عاهرة، ولا يهمّها سوى عشاقها، وغايتها في الحياة لفت أنظار الرجال وإثارة شهواتهم، والزوجة اتّهمته بالفسق، وبأنها تعرف شذوذه وعلاقته الآثمة مع سائقه،

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

وبأنها شبه متأكدة أنه يمارس الدعارة مع الأطفال. تمنّت ناديا لو تموت كي تمحو الحديث المدمّر الذي سمعته. تهالكت على سريرها، وقد استبدّ بها هوى عنيف للخلاص من معاناة روحها. أحسّت أنها محاصرة بصور تزداد كثافة، تصوّر لها مشاهد عنيفة من أفلام عنف ودعارة، صراخ وألوان، وجوه أطفال فقراء منتهكين، وصور أخيها يصفّق نشوة لمشاهد مصارعة حرّة، ووجه والدها مخرّب بالشهوة، وصور أمها تتلوّى منتشية بجمالها أمام المرآة. أحسّت أن صوتاً يأمرها لتقوم إلى درجها الخاص وتتناول الإبرة. ومن الخزانة الخاصة بالأدوية الضرورية لمعالجة التهابات الجسد - وليس الروح - أحضرت سيرينغاً وزرقت نفسها بيد مرتعشة بإبرة الموت.

كان الدواء شديد السمية ويعمل على شلّ مركز التنفس. حاولت أن تتنفّس بعمق لكنها عجزت. هوت على الأرض وهي تحسّ أنها تهوي في حضن دافئ حنون. كانت تبتسم ابتسامة شاردة وهي ترى بعين خيالها آلاف الأطفال المعذّبين والمنتهكين يفرّون من شاشة التلفاز ليلحقوا بها إلى حديقة لا حدود لجمالها. ومع آخر زفرة، فكّرت ناديا أن بمقدورها أن تعيش سعيدة في عالم آخر.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

14

المجنون

صالةُ انتظار فسيحة، أنيقة، مبرّدة، تزيّن زواياها نباتات خضراء ذات أوراق عريضة لمّاعة. وقد ارتفعت أغصانها، فساعدتها دعامات خشبية رقيقة في الامتداد، كراسٍ جلدية زرقاء تنشر زرقتها إحساساً بالراحة والهدوء. لافتة مستطيلة الشكل كُتب عليها ممنوع التدخين، وصورة سيجارة مشطوبة بإشارة ضرب مائلة. لكم تمنّت أن تشعل سيجارة، وهي تنتظر دورها في عيادة أشهر طبيب للأمراض النفسية، لكنها أذعنت للأمر المعلّق على الجدار. أكثر ما لفت نظرها ساعة خشبية تبدو من القرون الوسطى بعقاربها الضخمة وأرقامها اليونانية. كانت وحيدة مع دقات الساعة، وأحسّت وهي تنتظر بفارغ الصبر موعدها لملاقاة الطبيب. إنها تقف وجهاً لوجه أمام الزمن، وأخذ إحساسها به يتعاظم حتى شعرت أن له وزناً. وفجأةً تفتّقت جملة في ذهنها: «الزمن آلة الموت». فتنتها تلك العبارة رغم أنها لم تفهمها إلا بشكل غامضٍ ومبهم، ولم يكن من عادتها الاهتمام بالأفكار

والعبارات العميقة، ولم ترغب يوماً أن تقرأ كتاباً. كانت تتّهم زوجها دوماً وبسخرية مبطّنة في البداية ثم معلنة في ما بعد بأن الكتب تسبّب الصداع والجنون، واكتفت بأن تقرأ أخبار النجوم، والأبراج، والمواضيع الخفيفة. لكنها لم تلبث أن كرّت تلك العبارة التي فتنتها «الزمن آلة الموت» محاولةً الغوص في المعاني اللانهائية التي تثيرها فيها هذه الجملة...

كان مكتب الممرضة الذي يحتلّ الزاوية اليمنى من القاعة فارغاً. أحسّت برضى جرّاء كون المكان خالياً. قالت لنفسها: هذا أفضل، كنت سأضطر لخوض حديث مع الممرضة، وقد تعتقد أنني مجنونة أو مصابة بمرضٍ نفسيّ، وتساءلت: لماذا يُعتبر كل من يقصد عيادة طبيب نفسي مجنوناً؟ لكنها للحال أدركت أنها من هؤلاء الناس الذين يطلقون حكماً على كل مريض يقصد عيادة طبيب نفسي. حكماً جاهزاً وساخراً، بل فيه احتقار واستصغار لأولئك المرضى النفسيين، لكأنهم صُنِّفوا خارج الجنس البشري. ما يهمّها الآن ألا يعرف أحد أنها قصدت عيادة طبيب نفسي، لكنها لم تقصده لعلّة فيها بل فيه هو - الزوج - الذي لم تعد تناديه باسمه بعد عامين من الزواج، بل صار اسمه «أنتَ» و«أنتِ» الأسماء الحقيقية للأزواج، لأن الخصوصية والسحر لكل منهما يذوبان أو يتبخّران في روتين قاتل.

قامت تتمشّى في القاعة الفسيحة وتقترب من لوحة يزيد طولها عن المتر كما قدّرت، وعرضها حوالى نصف متر، تمثّل شاباً مستلقياً على عشب أخضر بكسلٍ واستسلام. ثيابه رثّة،

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

ويضع على رأسه قبعة من القشّ مهترئة ومثقّبة، وقد مالت إلى الأمام بسبب يديه المتصالبتين خلف رأسه وهو يغمض عينيه باسترخاء لذيذ مستمتعاً بدفء أشعة شمس تحسّها تغمر فضاء اللوحة، فيما رسمت شفتاه ابتسامة سعادة صريحة. استفزّها الشاب في اللوحة وتساءلت حانقة: ما الذي يدفعه للابتسام؟ واتّهمت الطبيب بأنه غير موفّق في اختيار لوحة غرفة الانتظار.. لكنها تساءلت وما أدراني مغزى هذه اللوحة؟ إن ابتسامة السعادة والسخرية الطافحة على وجه الشاب قد تكون مقصودة من قبل الطبيب، لعله يريد أن يوصل مرضاه إلى مرحلة يقدرون فيها على الإحساس بتلك السعادة البلهاء. لكن فكرة انبثقت في ذهنها تذكّرها أن ابتسامة الشاب استفزّتها لأنها تشبه ابتسامة زوجها. خفق قلبها مؤكداً حقيقة الشبه. أجل زوجها يبتسم دائماً تلك الابتسامة مذ أصابه الجنون...

انتفضت مجفلةً من صوت الساعة الخشبية تعلن تمام الثامنة. إنه موعدها مع الطبيب. نظرت بآلية إلى ساعتها. كانت تشير إلى التوقيت ذاته أيضاً. وما كادت ترفع نظرها عن الساعة حتى فُتح بابٌ أبيض عريض وأطلّ الطبيب الأربعيني بقامته الفارعة وأناقته الملفتة ووجهه الوسيم، وحيّاها بابتسامة قائلاً: السيدة رحاب أليس كذلك؟

قالت: أجل.

قال: تفضلي، وأفسح لها مجالاً للدخول...

كان مكتبه لا يقلّ اتساعاً عن قاعة الانتظار، أنيقاً، من

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

اللونين الأبيض والأخضر، وقد فُرشت الأرض بموكيت أخضر طويل الريش يبدو كعشب. قرأ سؤال الدهشة في عينيها: من أين خرج المريض الذي كان في الداخل؟ قال لها باسماً محاولاً بثّ شيء من المرح في نفسها: باب الدخول غير باب الخروج، اضطررت لهذه الوسيلة لأن الناس هنا يحسّون بحرج إذا تواجهوا وعرف كل منهم أن الآخر يقصد عيادة طبيب الأمراض النفسية.

قالت له: أجل معك حق...

غمرها شعور بالارتياح وهي تجلس بحضرة رجل أحسّت أن له مفعولاً آسراً، وأعطاها الأخضر المنتشر إحساساً بالاستقرار. أخذت نفساً عميقاً وهي تشعر أنها ستبوح له بكل شيء، كل شيء. قال: آسف سيدة رحاب، لقد اضطررت أن يكون موعدك متأخراً، في الواقع ضغط العمل عندي كثير هذه الأيام، وابتسم متابعاً: إن ضغوط العصر تتفاقم، وما عاد تحمّلها بالأمر السهل. وافقته دون أن تستوعب كلامه لأنها كانت منشغلة في التحضير لمقدمة حديثها...

قال: حسناً، سيدة رحاب، ثمة أسئلة تقليدية في البداية، عن العمر، المهنة...

قاطعته: عفواً، دكتور، لست أنا المريضة بل زوجي.

نظر إليها مستطلعاً إنما ليس مندهشاً، قالت: أتيت أستشيرك بحالة زوجي، إنه هو المجنون، أقصد المريض، أما أنا فالحمد لله لم أفقد عقلي بعد...

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

سألها الطبيب: ولِمَ لم تحضريه معك؟

تصنّعت الابتسام قائلة: لأنه يرفض، يعتقد بأنه عاقل، بل أدهى من ذلك يعتقد بأنه توصّل إلى حكمة الحياة.

- لكن في هذه الحالة سيكون من الصعب علاجه، يجب أن ألتقيه...

قالت: آمل ذلك، بمساعدتك طبعاً.

أخذت نفساً عميقاً قائلة: في الحقيقة لا أعرف من أين أبدأ. وفجأة اختنق صوتها وهي تخضع لانفعال خضّها فجأة مفجّراً دموعاً حارقة من عينيها، ربما لأنها أحسّت بهشاشتها تجاه رجل تتدفّق الثقة من ملامحه، لكنها أحسّت أنه من الطبيعي، بل قد يكون من واجبها أن تبكي في حضرة طبيب نفساني...

قال لها وهو يقدّم منديلاً ورقياً لتمسح دموعها فيما موسيقى هادئة لموزارت تغمر المكان فجأة، تحسّها قادمة من الفضاء لأنها عجزت عن تحديد مصدرها...

- سيدة رحاب، ثقي أن كل المشاكل لها حلول وكما يُقال نصف العلاج يكمن في البوح بالمشكلة، فأرجوك اهدأي وتحدّثي إليّ بثقة...

مسحت دموعها. أحسّت برضى كونها ابتدأت بدفقة الدموع وهكذا سيشعر الطبيب صدق معاناتها، وقد يصدقها أكثر.

قالت: أليس غريباً أن يبدأ الجنون عند رجل وهو على أعتاب الخمسين؟ لا تتصوّر كم يحزنني ذلك يا دكتور، منذ أكثر

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

من سنتين غدت تصرفاته غريبة للغاية، كأنها صادرة عن شخص آخر، شخص لا علاقة له إطلاقاً بما كانه.

- هل يمكنك أن تقولي لي في الحال ودون تفكير بعض تصرفاته؟

مثلاً . . .

أذعنت للأمر وقالت: تصوّر. البارحة لمحت صرصاراً كبيراً في غرفة الصالون، وأنا أشمئز من الصراصير، وأخشى قتلها، أقصد أفضِّل أن يهرسها غيري. قلت له: انظر إلى هذا الصرصار، هيا اقتله، فابتسم قائلاً: لا، لن أقتله، دعيه يعيش مستقبله! هو الذي كان يسحق الفراشات في كفّيه ليبيّن لرفاقه براعته في اصطياد الفراشات.

ابتسم الطبيب وقال بدعابة: ألم يُقتل الصرصار بعد؟

قالت: لا، تصوّر ماذا فعل، لقد رفعه على قطعة ورق برفق شديد ورماه خارجاً.

- حسناً، سيدة رحاب، سأسألك عن عمله وعاداته وإن كان يشكو من أمراض عضوية.

أشعل الطبيب سيجارة وقدّم لها سيجارة تناولتها شاكرة قائلة باستغراب: لكنك تمنع التدخين، مشيرةً إلى غرفة الانتظار.

قال: في الخارج، غرفة انتظار للجميع، لا يحقّ للمدخن أن يسيء لغير المدخنين، أما هنا فالمكان والوقت ملك للمريض فإذا كان مدخناً فليدخن.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

سحبت نفساً عميقاً من سيجارتها وقالت: زوجي اسمه مروان عبد الجبار، أشهر تاجر وقد جمع ثروات كبيرة من تجارة الزجاج، وهو جامعي حاصل على شهادة جامعية في التجارة والاقتصاد، وقد تزوّجنا بعد قصة حب، منذ ربع قرن تقريباً. كان شاباً جميلاً، قوياً، مغرماً بالصيد، وأكثر ما أحببت فيه قوته. كان لا يخشى شيئاً، ولكم اصطدمنا في بداية زواجنا بسبب هوايته في صيد الخنازير. تصّور يا دكتور الرجل الذي كان يقتل الخنزير ويسلخه ثم يقطّعه ثم ينام بعمق، لا يقتل الآن صرصاراً، بل يتركه ليعيش مستقبله!

- حسناً، سيدة رحاب، هل عشتما سعيدين ومتفاهمين؟

- أجل يا دكتور كانت حياتنا نموذجية. رُزقنا ثلاثة صبيان كلهم ناجحون والحمد لله. لم يتسبّبوا لنا بمشاكل إطلاقاً، لم نشك من أية صعوبات مادية. على العكس، لا نزال نعيش في بحبوحة يحسدنا عليها الأقرباء والأصدقاء إلى أن تحوّلت حياتنا إلى جحيم منذ أصابه الجنون، أقصد المرض.

- منذ متى لاحظتِ أن طباعه تتبدّل؟ أرجوك أن تحدّدي الزمن بدقة.

- قد لا أستطيع تحديد الزمن بدقة، لكنني أعتقد أنه منذ صدور الحكم النهائي للدعوى بينه وبين ابن عمه، رغم أن الحكم كان لصالحه بالنتيجة.

- وما موضوع الدعوى؟

- آه، إنها قصة قديمة. كان زوجي قد ورث عن والديه بناءً قديماً ومتصدّعاً من طابقين. الطابق الأول عبارة عن ثلاثة مخازن، يحتلّ أحدها ابن عمّه. وحين أراد زوجي هدم البناء المتصدّع وتشييد بناء حديث من ستة طوابق، رفض ابن عمّه أن يخلي الدكان، واضطرّ زوجي للجوء إلى القضاء. تسع سنوات يا دكتور استمرّت الدعوى، إلى أن صدر الحكم أخيراً بأن يخلي ابن عمّه الدكان وبأن يُهدم البناء. وبالفعل تمّ هدمه، وشُيِّد بدلاً منه عمارة رائعة بتسعة طوابق. . .

سأل الطبيب: لقد ذكرت منذ برهة أن البناء من ستة طوابق.

ضحكت وهي تجيب: ومن لا يخالف يا دكتور؟ لقد دفعنا سلفاً ثمن المخالفات.

- وما علاقة الدعوى بمرض زوجك؟

- قد لا تكون هناك علاقة فعلية، وقد أكون أنا واهمة إذ ربطت بين مرضه والدعوى. لكني لاحظت تغيّر شخصيته منذ صدور الحكم. آه، الله لا يكمِّلها مع أحد، كما يقولون. فبدل أن نفرح وتتحسّن حياتنا بعد أن ربحنا الدعوى، فقد ابتُلينا بمرضه. تصوّر لقد انتابه حزن شديد حين صدر الحكم لصالحه.

- كيف انتابه الحزن؟ هل يمكنك أن توضّحي أكثر؟

- أظنه أحسّ بالندم الشديد كونه ظلم ابن عمه، وندم على سنوات القطيعة والكره بينهما. لقد انتابه غمٌّ فظيع لأيام بعد صدور الحكم. لم يفتح فمه بكلمة، كان يجلس طوال الليل

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

محملقاً في الفراغ أمامه، لا يرد على كلامنا، كأنه لا يسمعنا ولا يرانا، وقد عرفت من المقرّبين أنه زار ابن عمه ورجاه أن يسامحه. . .

قاطعها الطبيب يسأل: وهل عوّضه عن الدكان؟

- في الحقيقة أراد أن يعطيه أكبر دكان في البناء الجديد، ولكن من حسن الحظ لم يستطع، لأنه كتب البناء منذ سنوات باسم أولاده، وجنّ جنون أولادي بسبب تهوّر والدهم ورفضوا أن يذعنوا لرغبته بإعطاء ابن عم أبيهم أكبر دكان في البناء الجديد.

- وماذا كان موقفه من أولاده؟

- لقد نظر إليهم بشفقة واحتقار، وقال عنهم مساكين، وعميان لأنهم لا يبصرون نور الحق. آه يا دكتور، حتى مفردات لغته تغيّرت بعد أن مرض، صار يتكلم كثيراً عن الحق، والعدل والقيم الروحية. يا إلهي كم تبدّل، كان لا يحكي سابقاً إلا بلغة الأرقام، وكان يضحك وهو يحكي لي كم ربح بمجرد لعبة بسيطة مارسها على زبون.

- ألا يزال يتابع عمله كتاجر زجاج؟

- لا إطلاقاً، لقد أهمل المحل. إنه يقضي وقته متأملاً أو يقرأ كتباً روحية، أظنّها زادت جنونه.

- ألا تزال الخصومة قائمة بينه وبين ابن عمه؟

- لا ، لقد عوّضه بمبلغ كبير من المال، يشتري للأخير دكاكين وليس دكاناً واحداً. عرفت ذلك من المقرّبين والأهل، فهو

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لا يحدّثنا إطلاقاً بما يعمل. حتى أن أحد الأقرباء شاهده يبكي في أحضان ابن عمه. بالله عليك يا دكتور، رجلٌ عاقل يتصرّف بهذه الطريقة؟

- من الواضح أنه ندم وأحسّ أنه ظالم.

- أحسّ أنه ظالم! لماذا لم ينتابه هذا الشعور طوال سنوات الخصومة مع ابن عمه؟ أليس غريباً أنه بعد أن ربح الحكم أحسّ أنه ظالم؟!

- حسناً، سيدة رحاب. ما هي تصرفاته الغريبة التي لاحظتها أيضاً منذ عامين؟

- ألا يكفي أنه أهمل تجارته، بل تركها تماماً، ثم أخذ ينفق بلا حساب على الفقراء، مبدّداً ثروته شمالاً ويميناً. من حسن الحظ أن أولادي تمكّنوا من أن يستولوا على القسم الأكبر من أملاكه وأمواله، لكنه ما يحرقني أكثر نوبات البكاء التي تنتابه. صدّقني، أحسّ وقتها بقرف. اعذرني على هذه الكلمة يا دكتور، لكنها الحقيقة، أشمئز من منظر رجلٍ عرفته قوياً وجباراً صار يبكي كطفل.

- ألم تحاولي التحدّث إليه؟

- أجل، حاولت مراراً، لكنني لم أجنِ سوى المرارة والخيبة. لم أعد موجودة بالنسبة إليه يا دكتور، أتكلّم إليه فيما هو ينظر إليّ نظرات شاردة تتجاوزني، كأنه لا يراني، ويقول لي مسكينة يا رحاب، أنت تضيّعين الجوهر. عن أي جوهر يتحدّث

لا أعرف؟

- وكيف يقضي أوقاته؟

- إنه يغرق بتأمّلات طويلة، وأحياناً يكتب، وهو حريص على أوراقه، يخفيها في درجه ويقفل عليها أكثر مما كان حريصاً على أمواله. ذات يوم داهمته وهو يكتب فأجفل وأخفى أوراقه، لكنني غافلته مرة وتمكّنت من فتح درجه الخاص بعد أن سرقت المفتاح وقرأت أوراقه. يا للطلاسم، لم أفهم شيئاً، لغة مجانين.

- هل تذكرين بعض عباراته؟

- لا ، واستدركت: أجل اذكر بعضها. تصوّر أنه يبتدع تعابير مثل «تجميع الذات»، لقد قرأت صفحةً لم أفهم منها شيئاً، أنه سيجمع ذاته، وأنه يجب أن يوجد حيث هو، وأنه يجب أن يمتد إلى المستقبل، وبأنه يعاني من نتائج سقوطه المأساوية. يا إلهي، يا دكتور، لو أتمكّن من إحضار تلك الأوراق إليك...

- أتمنّى فعلاً أن أقرأ ما يكتبه فهو مثير للاهتمام كما يبدو...

- لكن أي تجميع للذات هذا يا دكتور... هل يتحدّث هكذا عاقل؟

ابتسم الطبيب قائلاً: ثمة قاعدة يجب أن تعرفيها يا سيدة رحاب. لا يمكن القول عن شخص بأنه مجنون أو مضطرب نفسياً ما لم يخضع لاختبارات في الطب النفسي، كما لا يمكن أن نقول عن شخص إنه عاقل، ما لم يخضع بدوره لهذه الاختبارات.

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

- ماذا تقصد.

تابع الطبيب: الكلام شديد الوضوح. كثيرون حولنا يعتقدون، ويعتقد ذويهم أنهم أسوياء في حين أنهم غير أسوياء على الإطلاق. إن العصاب يأخذ أشكالاً متنوعة وقاسية في زمننا. بالمقابل، هناك أشخاص منسجمون مع ذاتهم، يفكّرون بوضوح وصدق وبشكل سليم لكنهم يُعتبرون شاذّين أو مجانين، كما ينظر إليهم الآخرون. أعرف شاباً ينظر إليه الناس على أنه مجنون لمجرد أنه يمارس هواية اليوغا في الهواء الطلق، ويضع حلقاً ذهبياً في أرنبة أنفه ويسدل شعره على جبهته أو يضفره في ضفيرة. لقد درس في الهند، وتأثّر هناك بالبوذية واعتنقها، وأصرّ على أن يعيش قناعاته هنا فكانت النتيجة أنه صُنِّف مجنوناً. فماذا تحكمين على هذا الشاب يا سيدة رحاب؟

أحسّت رحاب بالارتباك، ووجدت نفسها تجيب دون أن تبذل جهداً للتفكير: لا أعرف، المهم العقل...

ضحك الطبيب قائلاً: جملة هامة. المهم العقل، حسناً. فهل بإمكانك تعريف العقل؟

اشتدّ ارتباكها وقالت: وهل العقل يحتاج لتعريف، إنه عكس الجنون...

ابتسم الطبيب وقال: إذاً علينا أن نتّفق حول تحديد مفهوم العقل ومفهوم الجنون...

قالت وهي تحسّ بضيق: أرجوك يا دكتور، أنا لست طبيبة

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

نفسانية. كل ما أرجوه أن تساعدني في علاج زوجي.

قال الطبيب: ما فهمته حتى الآن أنه تاجر ناجح ثري، له ممارساته المعينة في الربح غير المشروع، وكان طمّاعاً وشرساً وظالماً، ثم تغيّرت وجهة نظره للحياة. أعاد تقويم ذاته وحاول ترميم ما يمكن ترميمه...

قاطعته بذهول: ترميم ما يمكن ترميمه؟ لكنه أهمل تجارته، وبدّد أمواله. صار الكثير من المحتالين يتظاهرون أمامه بالفقر ليسحبوا أمواله. وهو يصدّقهم، ويعطي ويعطي بسخاء ودون تفكير... ولم يعد يبالي بأولاه. صار يتّهمهم بالضلال والطمع، ويبكي ألماً على وضعهم. يسمّيهم المضلّلين، أنا...

- وأنت ماذا؟

غضت نظرها وقالت: في الواقع يجب أن أصارحك بكل شيء، فأنت طبيب. وأردفت، نفساني، لم يعد يقربني أبداً منذ حمى الدموع الروحية التي انتابته بعد صدور حكم الدعوى وتغيّرات طباعه، ما عاد يشتهي أن يقترب مني. أكاد أصاب بالذهول. لا أكاد أصدّق أن هذا الرجل الذي أحبّني وكان لا يطيق الابتعاد عني، صار ينفر مني وينظر إليّ تلك النظرة الباردة الأقرب للشفقة.

- ألم تناقشي المسألة معه؟

- أجل، لقد اضطررت لمناقشته في مواضيع حرجة، لا تتمنّى امرأة أن تبادر بمناقشتها مع زوجها.

- وماذا قال؟

- قال بعد أن أجبرته على أن يقول شيئاً: صحيح أن المسافة بيني وبينك شبر، لكن المسافة بين روحينا أميال.

- ألم يقل شيئاً آخر؟

- لا أبداً.

ابتسم الطبيب وتفرّس في وجه السيدة رحاب وسألها بلهجة مرحة: لو كانت علاقتكما الجنسية مستمرة، هل كنت تعتبرينه مجنوناً؟

تضرّج وجه السيدة رحاب وقالت: أرجوك يا دكتور لا تسيء الظن بي...

- إطلاقاً يا سيدة رحاب. هذه أمور بسيطة للغاية، لكني حتى الآن لم أجد سبباً مقنعاً لإدخال زوجك خانة المجانين.

قالت بحماسة حارة: كيف يا دكتور، لقد أهمل عمله، ونسي أسرته، وبدّد أمواله، ونسي أصدقاءه. أتعرف مَن يعاشر هذه الأيام؟ المتسوّلين. إنه يجلس معهم على قارعة الطريق وأحياناً يراه الناس يذرف الدموع وسطهم، فهل هذا تصرّف رجل عاقل؟

لم يجب الطبيب، فألحّت السيدة رحاب في السؤال قائلة:

- أرجوك قل لي، أهذا تصرّف رجل عاقل؟!

- لنبتعد عن التسميات يا سيدة رحاب. أنا أفضّل أن ألتقي زوجك، إنما عليك أن تعرفي أن تغيُّر رؤية الإنسان للحياة بشكلٍ

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

عام ولحياته بشكلٍ خاص يقتضي تغيّراً في سلوكه وشخصيته. واضحٌ أن زوجك أصبح يزدري المال، بل ندم على ممارساته القديمة . . .

قاطعته السيدة رحاب: وهل هذا طبيعي يا دكتور؟

قالتها بحرقة وقهر شديدين.

قال الطبيب باسماً محاولاً امتصاص انفعالها: في الواقع أفضل أن ألتقيه.

- وكيف عليّ إقناعه بزيارتك يا دكتور؟

- لا أظن الأمر مستحيل، سنتوصّل لحجة ما، لوسيلة ما.

- لكني يئست تماماً من إمكانية عودته إلى ما كان عليه. بصراحة لقد تعبت كثيراً، صرت قلقة، سريعة التأثر، وعصبية، بل أحياناً تنتابني نوبة ذعرٍ مفاجئة، أحسّ أن القدر أحكم قبضته عليّ . . .

قاطعها الطبيب: في هذه الحالة أنت بحاجة لمساعدتي أيضاً يا سيدة رحاب.

نظرت إليه السيدة رحاب باستسلام وقالت: أجل . . .

- حسناً سيدة رحاب، سأكتب لك دواء مضاداً للقلق، أنصحك بالاسترخاء والتأمل والابتعاد عن الضجيج. لا بأس في أن تقضي فترة هدوء تغوصين فيها في أعماقك . . .

تناولت السيدة رحاب الوصفة الطبية وهي تحسّ بانكسار. ودّعها الطبيب حتى الباب الخارجي للعيادة، لكنها قبل أن تغادر

تنسيق: علامة تعجب www.ibtesama.com

التفتت لتتأمّل صورة الشاب المسترخي على العشب مستمتعاً بدفء أشعة الشمس. للحظات أحسّته زوجها، بل شعرت أن هناك تواطؤاً بين الطبيب وزوجها والصورة... لكنها تابعت خطواتها متعثّرة بأفكار غريبة تزيدها تشوّشاً وتوتّراً.

15

انتصار الجلاد

وقف الموظف الخمسيني باستعداد تام أمام الضابط الجالس وراء مكتبه الفخم، المفروش بتلفونات غريبة الأشكال، وتحف صغيرة من كل أنحاء العالم، وأقلام فخمة للزينة. خبط الرجل قدمه بقوة على الأرض، ورفع يمناه بثبات، مثبتاً أصابعه المتخشّبة قرب صدغه وهو يقول:

- حاضر سيدي.

ردّ الضابط متململاً وهو يحكّ رقبته بقلم من الذهب. رمق مستخدمه باستخفاف وقال:

- أرسل من هو أجحش منك.

ابتلع الموظف الإهانة ببراعة دون أن يرفّ له رمش، ردّ بالصوت الذّليل ذاته:

- حاضر سيدي.

أخفض ذراعه المتخشّبة، وألصقها بجسده، خبط بقدمه على

الأرض بالثبات ذاته، واستدار منصرفاً متحاشياً نظرات الزوّار الذين يغصّ بهم مكتب الضابط.

انطفأ الرجل الخمسيني على كرسيه المعدني المخلّع، مقوّس الكتفين من ثقل الإهانات المتكرّرة. شعر أن قلبه متخضم وثقيل واصل حتى ركبتيه من شدّة تورّمه من القهر.

منذ عشر سنوات وهو يتعرض لإهانات هذا الضابط المتغطرس، الذي لا تحلو له إهانته إلا أمام الناس، وتشتدّ ساديته كلما غصّ مكتبه بالزوار. كم حاول أن يتجنّب إثارة سيده، لكن عبثاً، إذ أثبتت له أيام خدمته أن الضابط يتلذّذ بإهانة الموظفين عنده، سواء كان هناك سبباً يزعجه أم لا.

استعاد تفاصيل الإهانة الأخيرة. كان الضابط قد طلب منه إحضار ظرف للرسائل. أحضر له الظرف المتعارف عليه، لكن الضابط صرخ غاضباً بأنه يريد ظرفاً أكبر. لِمَ لم يحدّد له مقاس الظرف؟ أكان عليه أن يسأله ما المقاس الذي تريده؟ سيّان، فهو واثق أن الضابط سيهينه في الحالتين.

هل أساس عمله عند الضابط الإهانة؟ هذا ما أكّدته له سنوات الذلّ العشر. رئيسه الأسبق كان أكثر رحمة، أما هذا الضابط المتغطرس فيتلذّذ بسحق مستخدميه كحشرات، ولا يناديهم إلا: يا حمار، يا حيوان، يا غبي، يا حقير... إلى ما هناك من مفردات يبتدعها للإهانة. والكل يجيبه: حاضر سيدي.
نزع الرجل الذي حوّلته الإهانة إلى كيان متداعٍ، أشبه بقربة مثقوبة، بذّته العسكرية التي رقّ قماشها من كثرة الغسيل. شعر

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

وهو يطويها أنه يطوي جلده المهترئ وحين دسّها تحت المخدة، شعر أنه يدفن نفسه. لبس قميصه الأزرق الذي اشتراه منذ ثلاث سنوات من سوق الألبسة المستعملة، وبنطاله الذي غدا فضفاضاً عليه لأنه في السنتين الأخيرتين أخذ يخسر وزنه بسرعة مدهشة، دون أن يشغل باله بالبحث عن الأسباب.

خرج إلى الشارع، توقّف لاهثاً عند موقف الباص متسائلاً: إلى أين ستفضي بي هذه المعاناة؟ كل شيء حوله يبدو طبيعياً، المسيرة العادية للأيام، العمل، المشي في الشوارع الحزينة، الناس اللطفاء المتعاطفون مع خيباتهم الذين لا يملكون من وسائل ترفيهية سوى الثرثرة وغريزة القطيع التي تلحمهم، ونفوسهم المفعمة بالمرارة، والوجوه المستعدّة للمجاملة دوماً، وإبداء مظاهر القبول بالواقع مهما كان مجحفاً. وهو يفكّر بالمعنى الغامض للجملة التي ما برحت في ذهنه: إلى أين ستفضي بي المعاناة؟ مرّ شاب متغطرس يقود سيارة فخمة تشبه سيارات السباق، لها في مؤخرتها زائدتان تشبهان جناحين، منطلقاً بسرعة جنونية، لامبالياً بإشارات المرور وبنظرات الناس المطفأة التي تتابعه. سأل طفل صغير أمه: ماما، هل هذا الشاب مدعوم؟ لم ترد أمّه. ابتسم له معجباً بقدرة صغير على استيعاب واقعه. فكّر هل الناس ابتدعوا تلك الكلمة، التي تعني أن الشخص خارج القانون.

وجد نفسه يتفرّس في الوجوه حوله باحثاً دون أن يدري عن وجه له ملامح حرّة، انفجرت فقاعة في أعماقه كان لها تأثير مدوٍ

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

في روحه: الكرامة. الكرامة.

تخبّط قلبه الثقيل في سجن أضلاعه، وتساءل: مَن يشعر بكرامته في زمن خلع الشر رداءه وصار ينتهك الناس على المكشوف؟

طال انتظاره للباص. خرق شروده المتعب مرور شاب رياضي يمتطي حصاناً جميلاً مشدود العضلات. الحصان يركض بسرعة خيالية - كما أحسّه. حرّض هذا المنظر في قلبه أحاسيس غير متوقّعة، وحين توقّف الباص وتدافع الناس للصعود، ظلّ مسمّراً في مكانه يتابع الحصان الجامح. فجأة طعنه شوق حار لصغيره الذي سيكمل عامه الخامس بعد أيام. وحده هذا الصغير استأثر بعواطفه كلها، خلقه أباً مجبولاً من عطف وحنان. تذكّر رغبة زوجته بإجهاض نفسها، غضبها وهي تقول: والله عيب أن ننجب طفلاً وأصغر أبنائنا في الخامسة عشر. وحين أصرّ أن تحتفظ بالحمل، قالت له: لو كنت ثرياً لفهمت إصرارك. أما وأنت بهذه الحال، فما الذي ستورث هذا المسكين؟ حياة الذلّ!

لكن حدسه تحقّق، إذ إن هذا الصغير واحته الخضراء في صحراء أيامه المجدبة، وأمام طفله وحده يستطيع أن يوهم نفسه أنه رجل ذو كرامة. انتبه لتلك المعادلة المعكوسة: فكلما كانت جرعة ذلّه عالية، تظاهر أكثر أنه يتمتّع بكرامة عالية، أمام صغيره.

مرّت أيامه أمامه وهو ينتظر الباص التالي على رصيف الحياة. مرّت كحشرات زاحفة. ياه، كل يوم يخرج من خدمة الضابط طائش الحواس من تلاحق الإهانات، لكنه يجبر نفسه

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

طوال الوقت الذي يحتاجه للوصول إلى بيته أن يلمّع عواطفه المرضوضة من القهر وأن ينقّي نوافذ إحساسه المغلقة بالهموم، وأن يطهّر دماغه من سموم الإهانات. وحين يطالعه وجه طفل في الخامسة من عمره، يشعر أنه وصل لملاذه الأخير. يحمل صغيره، يحدّق في عينيه الطفوليتين اللتين لم يشوّههما الحزن بعد، يقبّله، ويخرج من جيوبه الخاوية أبداً، قطعة سكاكر رخيصة، أو دمية بلاستيكية، اشتراها من بائع الدمى الذي يفرش بضائعه على الرصيف يبيع فرحاً للأطفال بأسعار زهيدة.

كل يوم يطلب قبلة قوية على خدّ البابا، قبلة الشفاء كما سمّاها في سرّه، يطبعها صغيره بقوة على خدّه المترهل، يغمض عينيه منتشياً بالمفعول السحري لتلك القبلة، تدمع عيناه بدمع أشبه بالصمغ، سمّاه دمع المهانة.

غرقت روحه بأسى مُرّ أحسّ بطعمه اللاذع في فمه. تحسّس جيوبه الخاوية ببطانتها الممزّقة كأيامه. تذكّر عبارة قرأها أو سمعها - لم يعد يتذكّر: أن تكون أباً يعني أن تلتزم بابنك حتى نهاية المطاف. كم انفعل وقتها بتلك العبارة. لكنه يحسّها الآن ضبابية وغير مفهومة. ترى أي مطاف هذا؟! ياه، أين مضى الحصان الجامح كأحلام أول شبابه؟ لو يعرف إلى أين مضى الحصان، لعرف مطاف حياته.

مرّت سنوات شبابه وهو يقول لجلّاده: حاضر سيدي. في بداية تجرّعه للإهانات كان يجنّ من الغضب، يصل بيته كعاصفة، يشتم ويلعن، يكسر صحوناً، يتجاهل نظرات الذعر في عيون

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

أولاده وزوجته. يحيطه الجيران بعطفهم، ينصحونه بالتعقّل، إذ من غير المعقول أن يحوّل حياته الأسرية إلى جحيم يومي لمجرد سماعه عبارات عادية من رئيسه: يا حمار، يا حيوان، يا حقير...

«عادي يا رجل، عادي، تعقّل ولا تسمِّم حياة أسرتك وحياتك».

هذا ما قدّمه له المساكين المسحوقون أمثاله. ابتلع العصيدة الغثّة، وأكل بعدها قطعة سكاكير لتنسى الطعم المقرف.

صعد الباص التالي، متسائلاً عن معنى عاقل في هذا الزمن. وما أن انطلق الباص حتى أتاه الجواب خفيفاً كنسمة: العاقل هو الذي يقبل أن يترجّل رجل مدعوم من سيارة فارهة ليصفع بقوة مواطناً يسير في الشارع، أو يجلس في مقهى لمجرّد تسلية نفسه، أو للاستمتاع بنظرة الذلّ في عيون الناس. فيشكر العاقل اليد الرحيمة التي صفعته لأنها لم تفقده عينيه، أو سمعه! ويزداد تعقّله إذا عاد إلى بيته مبتسماً، ويتناول طعامه مع أولاده الذين يسألونه عن سبب تورُّم عينيه، فيخترع لهم قصة مثيرة عن ارتطامه بعمود، أو عن سقوط أصيص ورد من شرفة على وجهه!

داهمته ذكرى ذلك اليوم الذي عجز رغم محاولاته الجادّة عن نسيانه. يومها عاد إلى بيته وروح الشيطان تتقمّصه. يبدو أن إهانات الضابط كانت فوق طاقته على هضمها، ولم يكف الزمن بين عمله وبيته لتنقية روحه من السموم. وصل بيته متعكّراً، شاعراً أن دمه مسموم وأن عداءً حاقداً يقبض على روحه المعذّبة. نظر

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

صغيره إليه نظرة تعني بابا، لماذا وجهك يبدو غريباً؟

أية قوة شريرة كانت تتقمّصه؟ أمسك الصغير من ذراعه بقسوة، حدّق بوجهه العذب بحقد، تحوّل وجه الصغير لصرخة فزع خرساء، هوت يد الأب على خدّ الطفل بصفعة مدوية، أعقبها بصفعات أخرى أطاشت حواس الصغير، وجعلته يسقط مغمياً عليه دون أن يتمكّن من إفلات صرخة.

انقشعت الغمامة عن عينيه، حين غاب الصغير عن وعيه. انهار قرب ابنه يقبّله ويبلّل يديه بدموعه، وحين استعاد الصغير وعيه، فرّ من والده وهو يصرخ بطريقة هستيرية: ابتعد عني، ابتعد عني!

عرف أن شخصية الضابط قد تقمّصته وليست روح الشيطان. إنه يعبد هذا الصغير الذي سامحه أخيراً، مستكيناً بين ذراعي أب شوّهه الذلّ وجعله يتوه عن نفسه، ويتماهى مع جلّاده، ويسقط في قبضة سادية تعذيب الناس الأبرياء. عذاب تلك الحادثة انتشر على حياته كلها، على ماضيه وحاضره. سمّاه وصمة العار، وظلّ أسابيع بعدها غارقاً في وخز تأنيب الضمير، سابحاً في الآثار النفسية الكارثية لتلك اللحظة المنفلتة من الزمن، الخارجة عن إرادته وفهمه. كان يشعر بالرعب كلما استعاد تفاصيل تلك الحادثة التي بيّنت له إلى أي حدّ شُوّهت روحه ومسخت، منبّهة إياه أن كل أحلام يقظته التي عمرها أكثر من عشرة أعوام تدور حول حلم وحيد يجعله يبادل المواقع بينه وبين جلّاده، فيتحوّل هو للضابط المستبد، ويحوّل الضابط للمستخدم المهان.

تساءل وهو ينزل من الباص ترى أما من مجال ليكون الإنسان سوياً هنا؟! إما أن يكون جلّاداً أو ضحية؟! أسعد يوم من حياته يوم توفى ابن الضابط في رحلة بحرية قام بها مع رفاقه. يومها رقص من السعادة، رغم أنه ذرف دموعاً حقيقية أمام سيده، وهو يترحّم على ابنه، بينما أعماقه تغنّي بسعادة: الله لا يرحم فيه عظمة!

مشى في الزقاق بخطوات متثاقلة، شاعراً أن حياته ليست ملكه، وأن الذلّ شكّله رغماً عنه، لكن المهم ألا يعرف صغيره أنه رجل مُهان. يجب أن يظل بنظر ابنه البابا المعافى القوي، السعيد، والمتمتّع بكرامة عالية.

اشترى قطعة حلوى من السمسم والسكر لصغيره. رغب بتذوّقها لكنه زجر نفسه. انتبه كم تتزايد قذارة الزقاق مع الزمن، حتى صارت تلال القمامة المنتشرة فيه من علاماته الفارقة.

تمطّت روحه الذابة مستدفئة بين ذراعي الصغير الذي أخذ يلتهم قطعة الحلوى بشهية. سأله: بابا لماذا تأخرت اليوم؟

- آه يا حبيبي كان لديّ عمل كثير.

دوت تلك العبارة الطازجة بأذنيه: يا حمار، أرسل من هو أجحش منك.

- وأنت ماذا فعلت يا حبيبي؟ سأل صغيره.

قفز من حضنه، وقف أمامه متباهياً، قال: لعبت لعبة الضابط مع حمودة. هوى قلبه وهو يسأل: لعبة الضابط!

www.ibtesama.com

تنسيق: علامة تعجب

- أجل. أخذ الصغير يصفع الوسائد المهترئة وهو يصرخ: يا حيوان، يا كلب، لماذا...

صرخ الرجل: كفى، كفى، من علّمك هذه اللعبة؟

هزّ الطفل كتفيه لامبالياً، وقال: ألعبها مع حمودة دوماً.

- وماذا يعمل أبو حمودة؟

- مثلك يا بابا، عند ضابط.

انطفأ الرجل الخمسيني تماماً، تفرّج على حطام روحه، هاله حجم الوهم الذي أغرق فيه نفسه، إذ من المستحيل أن نضحك على أولادنا ونوهمهم أننا بشر نتمتّع بكرامة بينما نحن في الحقيقة مسحوقون كحشرات.

فكّر أن يعلّم صغيره لعبة تنسيه لعبة الضابط، لكن ذهنه المشبع بالإهانات عجز عن تأليف لقطة واحدة. مزّقت عبارة حاضر سيدي خلايا دماغه، وفرز خياله صوراً باهتة ضبابية سرعان ما كانت تذوب في الظلام الذي تختبئ فيه روحه.

لم يعد قادراً على تحمّل نظرة ابنه العذبة. شعر أن هذا الصغير يفهم بطريقة ما بئر الأحزان المطلّ من عينيه. تظاهر أنه أغفى فيما كان يبتلع دموعه لداخله، غارقاً أكثر فأكثر في ظلام روحه.

16

خمرة الحزن

كل صباح كان يجاهد لطرد بقايا أحلامه المغموسة بالخوف. يفرك عينيه ويمسّد وجهه المترهّل، كأنه يمسح صمغ الخوف عن جلده. يقوم من سريره بصعوبة كأنه يتمنّى أن ينفض عن كاهله سنواته التي قاربت الثمانين، يعدّ قهوته على نار يتقصّد أن تكون ضعيفة كي يمرّر أطول زمن ممكن. في الواقع أدهشته قدرته على التعوّد على السأم والقلق لهذه الدرجة. يجلس في مقعده الأثير في الصالون يستمع لنشرة الأخبار من محطات عدّة، فيشعر أن اكتئابه أصبح شاملاً.

في ما مضى كانت وحدته هي حريته. علّمته الحوار مع نفسه. ابتدأ مرحلة التقاعد بهمّة عالية. قرّر أن يبدأ حياة جديدة دافناً أحزانه على زوجته التي تركته دون لحظة وداع وانتقلت إلى العالم الآخر. كل صباح كان يقصد مقهى شعبياً متأبّطاً جرائد عدّة. يجلس في المقهى ساعتين على الأقل يقرأ الصحف ويقحم نفسه في أحاديث مع روّاد المقهى. لكن متعته الوحيدة في ارتياد

المقهى تقلّصت حتى تلاشت لأن راتبه التقاعدي لا يسمح بتلك الرفاهية التافهة. وحين وصف له الطبيب أدوية لالتهاب المفاصل، أصيب بعجز مادي حقيقي، وصار عليه أن يتقبّل معونة أولاده راسماً ابتسامة الذلّ على وجهه.

أولاده أين هم؟ مَن يصدّقه إذا اعترف لنفسه مراراً أنه لا يصدّق أن لديه أبناء. يحاول أن يعذرهم، فالحياة تطحنهم. يبرّر لهم جفاءهم وقسوتهم، يقبل عن طيب خاطر أن يكون ساحة صراخهم وغضبهم وقهرهم من الحياة التي حوّلتهم وأمثالهم لجيل من الجائعين. ذات يوم حضر شجاراً حادّاً بين ابنه وزوجته، وصل حدّ الضرب بسبب كيلوين من الموز. الزوج يتّهم زوجته بالإسراف لأنها اشترت كيلوين، والزوجة فجّرت كل قهرها من الزمن بزوجها متّهمة إياه بالبخل، وبأنها تعيش عيشة الكلاب معه. وفي نهاية الشجار تمنّى كل منهما لو لم يتزوّج الآخر.

كان يغضّ النظر عن زيارات أولاده له بهدف الاطمئنان عليه، كل منهم يخرج حاملاً غرضاً من البيت، لوحة، أو سجادة، طناجر أو صحوناً. حتى شراشف الأسرّة أخذوها تاركين له شرشفين، ثم يتركونه أعزل في مواجهة أحزان قلبه مع ابتسامة حزينة يفاجئه بها وجهه حين يلمحه عرضاً في المرآة. لم يخطر ببالهم أن سلوكهم هذا يعني أنهم يقولون له: لم يعد لك لزوم، أعطنا أشياءك القليلة، فما حاجتك لها، نحن الشباب الحياة لنا.

لم يستطع أن يعاتبهم قط رغم أنه كان يصرخ بصوت متشقّق بالغضب والقهر في وحدته لاعناً إياهم ومعاتباً ويتخيّل أنهم

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

يطرقون صامتين يصغون لكلامه. لكن ما إن يزوره أحدهم حتى يمتلئ كيانه بالوداعة، ويسرع محضّراً السكاكر الرخيصة لأحفاده، شاعراً أنه يرشوهم ليشحذ منهم قبلة نديّة يطبعونها على عجل على خدّه المتغضّن بتجاعيد الطيبة...

ذات يوم طلب إليه ابنه أن يعطيه التلفزيون الملوّن، ووعده أن يحضر تلفزيوناً بالأبيض والأسود. صمّم أن يرفض وأن يصرخ في وجه ابنه أن طمعهم به في خريف عمره تجاوز الوقاحة ذاتها. لكن حين همّ بالكلام وجد نفسه يقول: خذه يا بنيّ، فقد ضعف نظري، وما عدت أميّز الألوان بدقّة.

أحسّ أن لسان حاله يقول: خذوا كل شيء لكن لا تنقطعوا عن الزيارة المعتادة لأبيكم المسكين. في أعماقه كان متأكداً أنه لو رفض إعطاء ابنه التلفاز لقرّر الأخير مقاطعته.

كانت أيامه تنساب في فتور وصمت أقرب للشلل. فكل شيء حوله يبعث على الأسى. صار عاجزاً عن لملمة أفكاره، يتأمّل خشونة الحياة حوله، معاناة البشر، يحاول أن يفكّر بمشاكلهم معزياً نفسه، وشاعراً بتلك الغفلة المتأتية من المعاناة المشتركة بين البشر. لكن أفكاره تتبدّد وتتوه كما يتوه الماء في الرمال.

تضاءلت زياراته لأولاده، ففي كل زيارة يشعر بالحرج، وبأنه ضيف ثقيل. زوجة ابنه البكر لا تكلّمه أبداً، تنظر إليه بعينيها الواسعتين نظرة باردة ميتة، وحين تقول له جملتها الوحيدة: مع السلامة، يحسّ أنها تصفعه...

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

كلهم ينصرفون عنه لمتابعة برامج التلفزيون. يتظاهر أنه يتابعها معهم، لكن حين يصدر عنه تعليق، أو يشتاق لخلق حديث معهم يزجرونه كي لا يقاطع انتباههم لحوار الممثّلين الأكثر أهمية من حديث الرجل العجوز الذي فقد حاجته الوحيدة في الحياة: الحنان.

لا ينسى يوم كان يتغدّى عنه ابنته البكر. كان سعيداً بدفء الوجوه التي يحبها والتي يشعر أنها الوحيدة التي تخصّه في ما تبقّى له من عمره. أحسّ بعدوى شهوة الطعام وهو يتأمّل أحفاده يأكلون الرز مع السبانخ واللحم بمتعة وشهية. وجد نفسه يتحوّل طفلاً ويأكل مثلهم، إلى أن انقضّ عليه صوت زوج ابنته يصرخ بزوجته: قلت لك أنت اسكبي له السبانخ واللحم، اللحم أحق بالأطفال، ألا ترين أنه التهم نصف كمية اللحم؟ لم يعد يسمع، توقفت اللقمة في بلعومه وكاد يختنق. هزّته نوبة سعال عنيفة لدرجة أحسّ أن عينيه ستخرجان من محجريهما، وأن قلبيه سيتوقّف...

عاد إلى بيته مهزوماً منكسراً. أحسّ أنه لم يتبقَّ له سوى شرف عزلته يصونه من الأذى، تحديداً من أذى أقرب الناس إلى قلبه.

صار عاجزاً عن أن يتمنّى، فماذا عساه يتمنّى؟ أمزيداً من تراكم أيام الذل؟ إنه لا يريد سوى الراحة، ترى كيف هي؟ ياه كم ثقلت عليه الحياة، وكم هو مؤسف أن يكون وحيداً لهذه الدرجة ولديه أربعة أولاد و(دزينة) من الأحفاد. كان أبناؤه

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

يحضّرون له طعام الغداء بالتناوب، وفق برنامج اتّفقوا عليه. في البداية كانوا يجلسون معه لساعة أو أكثر، يحدّثونه ويطمئنون على صحته، يوصونه ألا ينسى قفل جرّة الغاز. لكن زياراتهم صارت أقصر، حتى انعدمت. ربما ملّوا منه لأن سمعه غدا ثقيلاً. فكانوا يضطرّون للصراخ ولإعادة الكلام مراراً، صاروا يدّعون المشاغل الكثيرة، ويمدّون له طعامه من طاقة الباب المستطيلة.

كان يتخيّل دوماً تلك اللقطة من فيلم قديم كيف تقدّم فيه امرأة الطعام لكلب. يحسّ تماماً أنه استحال إلى حيوان... كان يأخذ منهم طعام الذلّ. إنهم لا يتركونه أبداً بلا مؤونة لألمه، يخشون ألا يجد ألمه ما يتغذّى به كل صباح!

ذات مساء أحسّ أن روحه تختنق. اشتاق أن يتحدّث مع إنسان حديث قلب لقلب. قصد بيت ابنته الصغرى. كان يعرف أنهم في الداخل، فالضوء يشفّ من شقوق الباب وصوت التلفاز ملعلع. قرع الجرس وقلبه يختلج بشوق كبير لكل تلك المعاني الإنسانية التي نسيها إنسان اليوم، لمح خيالاً يتحرّك من وراء زجاج الباب. خفت صوت التلفاز وابتعد الخيال، كرّر قرع الجرس مراراً، ظلّ الباب موصداً... تلقّى الطعنة في قلبه المتعب من خيبات الحب، ورغم ألمه لم يستطع أن يرجع إلى صقيع وحدته. قصد بيت ابنه وفي أعماقه كان يفتّش عن طعنة أخرى تتآزر مع الطعنة الأولى وتقتله. فتح ابنه الباب بوجه شوّهه الغضب. أحسّ أن ابتسامته بلهاء لأنها لم تحرّك أي شيء عند ابنه. ما إن لمحته زوجة ابنه حتى تعلّلت بالصداع وذهبت لتنام. ما

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

إن همّ بالكلام مع ابنه محاولاً معرفة سبب انزعاجه، حتى انفجر الأخير كقنبلة. كان دوي صوته مرعباً لدرجة اهتزّت معها الستارة الرقيقة الوحيدة. صرخ: لا أحتمل كلمة، أتفهم، أنت السبب، أنت من أخرجتنا إلى دنيا الشقاء. رجل بائس وفقير مثلك لماذا يتزوّج؟ لماذا ينجب أطفالاً؟ ليعيشوا عيشة الكلاب، أليس كذلك؟

ودّ لو يقول له: لقد علّمتك حتى أنهيت دراستك الجامعية، وربيّتك أحسن تربية وسحقت نفسي من أجلك و...

لكن الكلام تخثّر في بلعومه وتبدّد.

لم يعتذر ابنه عن عاصفة غضبه التي صبّها على والده. حلّ بينهما صمت ثقيل. خرج الابن المشحون بالقهر صافقاً الباب وراءه، غير مبالٍ بنظرات الذعر والألم في عيون أولاده. أوشك للحظة أن ينهار عند قدمي حفيده ذي الأعوام الخمسة، وأن يوسّد رأسه في حضنه. اقترب من الصغير وأمسك يده. رفع الصغير عينيه. حوّلهما الحزن لعيون تشبه عيون جدّه المنخور بالألم. أحسّ أن الصغير يحتمي به. مسح بكل الحنان المقموع في روحه على رأس حفيده وهمّ أن يبكي راكعاً على قدميه ورأسه في حضن حفيده. هكذا اشتهت روحه. لكنه تراجع خائفاً وهو يسمع صوت زوجة ابنه تصرخ بأولادها بخشونة أن يدخلوا إلى غرفتهم...

(كل طعامك كحيوان)، هذه الجملة كان يبتدئ بها نهاره وترافقه بإلحاح اليوم كله. وفي بيته الضيّق العاري من الأغراض، كان يحسّ أنه يختبر شعور العيش في قبر، لكن مشاعر رائعة

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

ومفاجئة كانت تتسلّل إلى روحه، وهو في قمة يأسه. فيحسّ وهو يتقبّل قسوة أولاده أن روحه غنية، وأن الله يساعده بطريقة خفية ويجعله يتذوّق قطرات من العذوبة الإلهية التي تسقط في روحه من سماء قصية، لكنه متأكد أنها موجودة، فتحول قلبه المتورّم من القهر إلى قلب يتّسع للعالم كله، بل يحسّ قلبه أكبر من العالم. فيشفق على قساة القلوب الذين أفقدهم الغضب والقهر موهبة الحب، والذين أنساهم زمن المادة أبجدية الحنان.

ذات صباح وبعد أن أعطاه ابنه طعامه من طاقة الباب، ودخل إلى المطبخ، دخلت قطّة من الباب الذي نسيه مفتوحاً. يبدو أنها شمّت رائحة الطعام. اشتعل قلبه فجأة بسعادة من وجد حلاً لأزمة عذّبته طويلاً. أسرع يغلق الباب مانعاً الحيوان من الفرار. قدّم لها غداءه، فالتهمته بشهيّة عالية. كم كان سعيداً. قرفص وأخذ يأكل معها، متعمّداً أن تكون لها الحصّة الكبرى. كان مبتهجاً كونه لم يعد وحيداً. ودّ لو يسألها وهو يعدّ قهوة بعد الغداء، إن كانت ترغب بفنجان قهوة. أسعده أنه لا يزال يملك بقايا دعابة يقاوم بها خشونة الحاضر. قرّر أن يصون علاقته بذلك الحيوان، مغدقاً عليه الحنان المقطّر قطرة قطرة في قلب عجوز خمّره الحزن.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

17

إندو

هل الحياة مستحيلة ما لم يكن هناك أسياد وخدم؟

كانت هذه الفكرة تلحّ عليّ وأنا أتأبّط ذراع إندو النحيلة الأشبه بغصن يابس مقطوع. إندو الخادمة السيرلنكية التي تعمل منذ سنتين لدى جارتي التي لا يجمعني بها سوى تحية مفروضة علينا بحكم الجوار. لم أكن وحدي أنفر من تلك السيدة المتكبّرة والفظّة، فلم يكن أحد من الجيران يطرق بابها. كانت مطلّقة تخلّت عن ولديها. تعيش حياة ليلة مشبوهة فلا يبدأ زوارها بالتوافد إلى بيتها إلا قرب منتصف الليل، يحيون سهرات صاخبة تنتهي بعد الفجر.. ثم تزوّجت شاباً وسيماً يصغرها بسنوات، ويقول البعض أنه عشيقها وليس زوجها.

كنت ألتقي إندو كثيراً، في الدكان، في المصعد، في الشارع. وحدها أكّدت لي حقيقة جوهرية أن الكلام ليس ضرورياً لنعرف بعضنا. فمن اللحظات الأولى التي التقيت فيها تلك المرأة الضئيلة، الشديدة النحول حتى تبدو أقرب لشبح، قرأت في

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

وجهها اضطراباً أقرب إلى الخوف. كنت أشعر باضطرابها رغم تعبير الهدوء في وجهها. ولا أعرف لماذا حرّضت لديّ الرغبة بمراقبتها!

كل صباح كانت تنزل إلى السوق بثياب الخادمة، القماش الأزرق المخطّط بالأبيض، وقد عقصت شعرها الفاحم بالملقط الأسود ذاته. تعود محمّلة بالأكياس وهي تقاوم انحناء كتفيها. رفاهيتها الوحيدة في الحياة: كوب عصير الجزر الذي تشربه بتلذّذ كل عصر لدى بائع العصير في الجوار. تحسّ أنها تكافئ نفسها على يوم عمل طويل وشاق لدى السيدة. تحسّ أن برودة العصير تلامس قلبها الملتهب بالأشواق لأولادها.

وفي المرات القليلة التي كنت ألمحها فيها برفقة السيدة، كانت تمشي وراءها دوماً باستسلام لا مفرّ منه.

ذات مرة اجتمعنا نحن الثلاثة في المصعد. ابتسمت في وجه إندو وسألتها: كيف حالك؟

ردّت بكلمة واحدة مضت رأساً إلى قلبي: بخير.

ضحكت السيدة وقالت: إندو خادمة ممتازة لكنها تشكو دوماً من صداع.

ما الذي يشدّني إلى إندو؟ فحولي مئات من الخادمات من سيرلنكا والفيليبين وغيرهما من البلدان التي جعلت مواطنيها خدماً... لدى إندو شيء مختلف، سرّ يغريني باكتشافه. هيئتها هيئة إنسان اضطرّ لتحمّل الذلّ طويلاً، بنظرتها الواهنة الكئيبة

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

وابتسامتها المزيّفة، وتعبير الغياب الذي يشعّ منها كلما التقيتها. أليس غريباً أن يشعرك إنسان بغيابه كلما التقيت به؟!

أين تهيم روحك يا إندو؟ كنت أتساءل هذا السؤال الصامت كلما التقيتها.

كانت إندو أماً لثلاثة أطفال، اضطرّتها قسوة الحياة للسفر والعمل خادمة بعد أن فُقد زوجها. فقد سافر للعمل في البحر ولم تعد تعرف عنه شيئاً. هل هو حي أم ميت... بعد سنوات من سفره تركت أولادها لدى أمها المريضة وسلّمت أمرها للوسيط الذي أمّن لها عقد خادمة في بيروت، بشرط أن تبقى ثلاث سنوات متواصلة في الخدمة قبل أن يحق لها إجازة لتزور أولادها. بدا لها هذا الشرط مستحيلاً، فهي لا تقوى على فراق أولادها يوم واحد، لكن خشونة الواقع جعلتها تذعن.

تنبّهت إندو لحقيقة أدهشتها. ما أن وصلت إلى البلد الذي يعاملها كخادمة، بأن صوتها لم يعد صوتها. إذ أخذ يرتجف ويصيبه الوهن، وبأن دموعاً خفيفة تلمع دوماً على أطراف أهدابها. كانت ممتلئة تصميماً على العمل لتؤمِّن المال لأولادها، وكانت تمارس عملها بنشاط عصبي دون كلل وهي تدندن بأغان تنكئ جراح قلبها بلا توقف.

ورغم أن بيت السيدة كان فسيحاً ومفرطاً في السخاء والترف، فإنها خصّصت لإندو فراشاً حقيراً في الرواق المعتّم المفضي للمطبخ. صمّمت إندو على احتمال الذلّ مهما بلغت درجته في سبيل أولادها. وفي المساء كانت تلجم دموعها بقوة،

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

وتحدث نفسها بحنو وشفقة هامسة لروحها المتعبة بأنه يكفي أنهم يعيشون في بيت، تحت سقف، يأكلون جيداً، ويلبسون ثياباً جديدة، ويذهبون إلى المدرسة، حتى تشحذ قواها يوماً بعد يوم. الصورة الأحب إلى قلبها صورة أولادها الثلاثة بثياب المدرسة المكوية الجديدة. كانت كل مساء تشبع تلك الصورة بقبلاتها الحارة، محاذرة أن تسقط دموعها عليها. ثم تغفو ليس بسبب النعاس، بل لأن الحزن قد هدّ جسدها النحيل.

كانت تحسب كل شهر متى ستعاني ابنتها آلام الدورة الشهرية، فتعيش معها تلك الآلام، تهدهدها بوضع كيس الماء الساخن أسفل بطنها وشرب مغلي النعناع. وكم من الليالي قضتها مسهدة منصتة لهدير محرك البرّاد والمكيّف، طالبة عوناً وتفهماً من آلات حديدية. ترجو قوى خفية أن تطرد المخاوف القاسية والخيالات الوحشية التي تصوّر لها ابنتها فريسة شبان عابثين يستغلّون تفتّح جسد الشابة للحياة. فتقوم عند الفجر مبلبلة القوى، مهتاجة من انفعالات ألمها، فتطوف في الشوارع الغافية تصارع أشواقها وقلقها. تسير كأنها تريد انتزاع نفسها من شيء ما ثم تعود لخدمة السيدة وقد تحوّلت لامرأة منطوية على ألمها معتصمة بالصمت.

لم تلحظ إندو سادية سيدتها في البداية. ربما لأنها كانت مصمّمة على تحمُّل كل شيء في سبيل تأمين المال لأولادها. ولم تهتمّ كثيراً بأن السيدة كانت تنهكها بالعمل المنزلي، وتعيرها لأصحابها كلما احتاجوا لخادمة في حفلاتهم. لكن إندو صعقت

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

حين هوت أول صفعة على خدّها لأنها سلقت الجزر أكثر من اللازم. أحسّت تلك الصفعة المباغتة كالحرق على خدّها، لدرجة شعرت أن أضراسها تخلخلت من قوة الصفعة. كان وجه السيدة يلتمع بلذّة غريبة وهي تتأمل زوغان نظر إندو. همّت أن تقول شيئاً لكنها عجزت. في ما بعد صارت الصفعات تتوالى. بل إن السيدة ضربتها بالمقلاة على رأسها فتورّم جبينها ونزف. لم تستطع إندو أن تجد تفسيراً لتلك المعاملة، ولم تقنع بالأسباب الواهية التي تدّعيها السيدة، كأن يكون الملح زائد في الحساء، أو أنها لم تكوِ قمصان الزوج جيداً... لكن حسّها الفطري نبّهها لفهم تلك المرأة المستبدة التي تملك قسوة غريزية في روحها تجعلها تتلذّذ بتعذيب الضعفاء والعزّل. كان منظر إندو المسكينة، الغريبة والتي لا تملك أي سلاح سوى تحريك رحمة الآخرين، منظر تلك الأم الفقيرة المقذوفة خارج وطنها وأسرتها لتعمل خادمة، يحرّك في نفس تلك المرأة السادية لذّة عارمة لإذلال الخادمة.

ما كانت إندو قادرة على التذمّر أو الشكوى، ولا تبوح لأحد بآلام روحها. لم يكن يوجد في دنياها إنسان قادرة أن تبكي على كتفه. إندو إنسانة لا تجد أي عطف أو حب في هذا العالم؟!!

صارت السيدة تتفنّن في إذلال إندو. إذ صارت تضاجع زوجها في الصالون وعلى بعد خطوات من المكان الذي تنام فيه الخادمة. بل إنها كثيراً ما كانت تناديها وهي عارية في أحضان زوجها لتحضر لها ماءً أو لتضيف لها الثلج إلى كأس الويسكي.

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

لا تملك إندو سوى الإذعان، وما إن يراها الماجنين تسير متعثرة بخجلها وبؤسها، مطرقة بنظرتها إلى الأرض حتى ينفجرا بضحك صاخب. حتى قالت لها السيدة ذات مساء: يمكنك أن تتفرّجي علينا فهذا يسهّل عليك ممارسة العادة السرية.

مع الوقت صار وجه إندو يزداد قتامة حتى غدا مخيفاً. وبدأ ظمأ للانتقام يستقرّ في قلبها. فهمت أنها ببؤسها وغربتها وهي لا تملك أية وسيلة للدفاع عن نفسها، تحرّك في نفس تلك السيدة الحقيرة الحدود القصوى من الدناءة. لكن وجه إندو كان يضيء بسعادة غامرة حين تتّصل بأولادها مرة في الشهر ويتحوّل صوتها لزقزقة وتنهمر الدموع من عينيها وهي تطلق آهات نشوة مستدفئة بصوت أحبائها. وككل مرة تختم المكالمة بأنها بخير. هل سمعتم جيداً؟ أنا بخير، أنا بخير، في الوقت الذي يرسم وجهها أصدق أيقونة ألم، وابتسامتها تفضح ألم نفسها العميق. كانت تظل أسيرة أصواتهم لأيام، مستعيدة ذلك الفضاء النقي الذي تخلفه أصواتهم.

مضى عامان وإندو تحتمل الذلّ. كل مساء تحتضن صور أولادها، تناجيهم بكل طاقة حبها المكبوت وتغفو.

صار من مهامها أن تقصّ أظافر قدمي السيدة وتطليهما بالطلاء، وأن تحضّر لها العجينة النازعة للأشعار، ويا ويلها لو سبّبت لها الألم. صارت تعيرها بكثافة لأصدقائها. تحوّلت إندو لآلة عمل، والاضطراب يكبر في روحها رغم الهدوء في وجهها.

صارت الخادمة تخشى الانهيار، فهذا القلق الأليم الذي

تنسيق: علامة تعجب
www.ibtesama.com

يحفّ بها دوماً، وذلك الشوق الحارق الذي لا يهدأ لحظة نحو أولادها، ثم سادية المرأة التي تخدمها. كل تلك الضغوط ما عادت إندو قادرة على تحمّلها، لكنها تصبّر نفسها. فبعد عام ستنتهي من الخدمة: تحلم إندو أنها ستتمكن من شراء دكان صغير في بلدها تعدّ فيه الحلويات الشعبية وتبيعها.

ذات مساء كانت الخادمة غافية فوق فراشها الحقير حين أيقظتها ركلة من قدم السيدة. كان الفراغ قد جعل تلك المرأة مستبدّة بشكل لا يحتمل، وسادية لدرجة مرعبة. كانت في حالة هياج من الغضب. فتحت إندو عينيها شاعرة أنها في كابوس. رفعت رأسها لترى السيدة عارية تماماً وهي تمسك سراويلها الداخلية وتصرخ: يا حيوانة، قلت لك أن هذه السراويل من الحرير ولا يجب غسلها بالماء الساخن. رمت السراويل في وجه إندو وأعادت ركلها بوحشية، كأنها أسيرة حمّى مجنونة. صرخت إندو: كفى، كفى. وانتفضت وقد صارت عاجزة عن لجم نفسها. أحسّت أنها تمضي نحو الهاوية دون أن تفكّر. دبّت في جسدها اليابس قوة هائلة. هربت من المرأة المسعورة إلى المطبخ. ودون وعي منها قذفت السيدة بالقبضة الحديدية التي تهرس فيها الثوم في جرن. سمعت صوت ارتطام المعدن برأس المرأة صوت أشبه بالانفجار. هوت المرأة على الأرض وهي تئنّ.

فرّت إندو من المنزل حافية. طرقت بابي وهي تحكي لي بصوت متوتّر إلى أقصى حدّ حتى أنه كان ينكسر في لحظات كثيرة، ما حدث. ضممتها بحنان، فأخذ جسدها يرتجف. قالت

لي أنها منذ سنوات لم تتلقَّ لمسة حنان. نفذت تلك الحقيقة إلى قلبي وانحفرت فيه. بدت تلك الحقيقة رهيبة حقاً. إندو تحتقر وتهان وتسفّه، تلبسها الحضارة ثياباً نظيفة مخطّطة بالأبيض والأزرق، ثياب تؤكّد كل لحظة أنها خادمة بلا كرامة، بلا إنسانية.

كانت مرتعبة، تتعلق نظرتها بي كمنقذتها الوحيدة، وتهمس لي: أخشى أن تكون قد ماتت.

وعدتها أني سأبقى معها أدافع عنها. انحنت لتقبّل يدي، فمنعتها. قلت لها إنها إنسانة مثلي، مثل أي إنسان يتمتّع بكرامة. ضحكت من كلامي حتى سالت دموعها. آلمتني السخرية في ضحكها. أعطيتها قرصاً مهدّئاً، وأجبرتها على ابتلاع حساء ساخن، ابتسمت ابتسامة تعني أنها ممتنّة لي... وقبل أن تغرق في عالم النوم المحفوف بالكوابيس، بدا وجهها الأسمر فوق الوسادة البيضاء كقرحة في الروح.

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

18

أعاند من أجل الحب

الزقاق ذاته لم يتغيّر، كلما تقدّمت فيه اقتربت من طفولتي. في نهايته انعطفت إلى اليمين لأجد نفسي عند باب كنيسة «السيدة». خفق قلبي وأنا أحسّ بمشاعر غير متوقعة لها جيشان غريب. كنت في حضرة الماضي. الماضي الذي طالما اعتقدت أني أدرت له ظهري. لمست الباب الخشبي العتيق الذي يرسم نصف دائرة في أعلاه. أحسست أني ألمس بشرة صديق عزيز افتقدته طويلاً. كان الباب مواربأ. دخلت الكنيسة الغارقة في البخور والعتمة. عجبت من قدرة ذاكرتي على استحضار الصور. كنت أقصد الكنيسة عصر كل يوم سبت، أقف في المكان ذاته، أرنو إلى الأيقونة ذاتها التي فتنتني ولا تزال، أيقونة العذراء تحمل ابنها. كانت تحمله وقامتها منتصبة ونظرها شاخص إلى البعيد. الطفل يسوع لم يكن مهتماً لحنان أمه أيضاً. كان بدوره يشخص إلى البعيد. كانت تلك الأيقونة تحيّرني، وعرفت الآن بعد ربع قرن أني أضمّ تلك الأيقونة بداخلي، وأن تلك النظرة المحيّرة

للسيدة العذراء لا تزال تملك وهجها وسلطتها عليّ.

المكان معدّ لي. لم ألتقِ أحداً من المصلين. ربما لم يعد الناس يتذكّرون تلك الكنيسة الأثرية الصغيرة، إنهم يفضّلون الكنائس الفخمة. يبدو أن خادم الكنيسة أشعل البخور والشموع ومضى. أخذ حنين الماضي يليّن ملامحي، ونتحت الدموع من عيني. رغماً عني ركعت على العارضة الخشبية للمقعد وشخصت إلى الأيقونة التي زاد الزمن من سحر قداستها. حاولت أن أحزر بعد ربع قرن التعبير العميق والمحيّر لنظرة السيدة العذراء، لكن السنوات لم تزدني فهماً، للأسف. توحّدت مع الطفلة التي كنتها ذات يوم، شبكت يدي وصلّيت بالحرارة ذاتها: السلام عليك يا مريم، يا ممتلئة نعمة، مباركة أنت بين النساء، مباركة ثمرة بطنك سيدنا يسوع المسيح...

اختنق صوتي، وأحسست بنار الإيمان تلفحني دون أن أكون مؤمنة. كنت أملك رهافة المؤمنين وحسّهم لكني لا أملك إيمانهم.

كنت أحاول جاهدة أن أقطع خط النظر الوهمي للسيدة العذراء، لكن عبثاً، وجدتني أطلب إليها بترجٍّ: أرجوك انظري إليّ.

لم أتوقّع أن تستجيب للحال. وبكل طاقة الحنان المختزنة في روحها نظرت إليّ. كانت نظرتها راسخة كالحياة فأعجزتني، وأحسست بالإعياء يرشح من مسامي. قالت لي: افتقدتك كثيراً.

قلت: وأنا أيضاً.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

كنت في حضرة أم كونية. كانت نظرة السيدة العذراء لي تختزن ذكريات طفولتي وسنوات مراهقتي. هل حقاً كنت تلك الفتاة الصغيرة التي كانت تعبر الزقاق عصر كل سبت متسربلة بعتمة الغروب، تقف أمام الأيقونة المحيّرة لتصلّي؟

تساءلت أمام عمق النظرة الحنونة: كيف استطعت أن أغادر كل هذا الحب؟

سألتني: لكن لماذا عدت؟

ووجدتني أجيب دون تفكير: لأني شعرت بحب مماثل للحب الذي يملأ قلبك. قمت من مكاني وتقدّمت من الأيقونة، لامست أطرافها بحنو، ثم امتدّت يدي لتمسح بشرة العذراء المتشقّقة. كانت جبهتي على مستوى يديها، أحسست بوجيب قلبها متناغماً مع إيقاع قلبي العاشق.

قلت لها بتصميم: أعطني زمناً لأحبه، وأعطه زمناً ليتلقّى حبي، ليحبّني أيضاً.

انتبهت، للهجة الأمر القاسية في صوتي، لكني كنت راضية، فالحب وحده يعطي الإنسان الحق أن يأمر الله.

مسحت يدها بحنان على رأسي، فعبرني دفؤها كدغدغة. سألتني: أإلى هذا الحدّ أتعبتك الدنيا؟

- أجل.

- وقصدتني لغاية، ولولا غايتك لما افتكرتني؟

حاولت أن أختبئ وراء الكلمات، لم أستطع. في حضرة

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

مريم العذراء لا يمكنني أن أكذب.

قلت: قصدتك لأن قلبي مخمور بالحب كقلبك.

لم يمنعني الانفعال من تذوّق حرارة اللقاء، قالت لي: وما مصير القلب المخمور بالحب سوى الاستسلام لمشيئة الله؟

للحظة انقشعت الغشاوة عن عيني وعرفت أين تنظر العذراء. كان نظرها معلّقاً بالصليب. عيناها تختصران الماضي والحاضر والمستقبل. إنها تحمل طفلها وتنظر إليه. نظرة كلها ثبات وقوة. تأمّلتها بدهشة. عجباً كيف لا ترتعش يداها؟ كيف لا ينحني كتفاها من ثقل الكارثة؟

كنت مستعدة أن أعاند لأجل الحب المرهق الذي أحمله في قلبي. قلت لها وعيناي تنغرسان في عينيها: لو مات ستدمرينني، أعطه عمراً لأحبه.

ابتسمت مشفقة: لقد شبع من حب النساء، كم من النساء أحببنه.

- لكني أحبّه بطريقة مختلفة.

تابعت بالشفقة ذاتها: طريقة مختلفة! كيف؟ كل عاشقة تعتقد أن لها طريقة مختلفة.

- طريقة مختلفة لأنها تصدر عني، لأني أحوّل الحب إلى نعمة، هذه هي طريقتي. ثم أريد أن أقول لك أنه لو مات سأطعن في قلب وجودي، سأموت معنوياً ثم جسدياً، هل يرضيك هذا؟

العذراء تنظر إلي بثبات دون أن يرفّ لها رمش أو تسقط من

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

عينيها دمعة. وأنا أنظر إليها بثبات أكبر وألحّ في طلبي: أعطني زمناً لأحبّه. كنت جاهزة للمساومة، كنت مستعدّة أن أرشو السيدة العذراء . كنت واثقة أني لا أرتكب معصية لأني عاشقة.

انقطع الحوار بيننا. تحوّلت لكيان شفّاف يعبرني شعاع حب العذراء فأراه يتلألأ في داخلي كذرات من غبار مضيء. كانت رائحة البخور تتكاثف وتعطيني إحساساً جديداً بالطهارة. لم يعد غبار العالم عالق بي، لست سوى وعاء من نور يحتضن حباً أكبر مني.

وكما حدث لي في مرات قليلة، حين كنت أكتشف أن الحياة تخفق في أماكن أخرى لا أعرفها، شعرت بفتنة الحياة المغوية تتراقص في مخيلتي كفراشة ساحرة الألوان.

كان هو يملؤني ويكمّلني، ومعه أوجد وأفكّر وأشعر. وعدتني العذراء أنها ستعطيني عمراً للحب، وستكون كريمة في عطائها وتعطيني إضافة للزمن صليباً، وقوة لأنظر إلى صليبي بتحدٍّ وأنا أحتضن حبي بين يديّ.

لثمت الأيقونة المحيّرة، ثم وضعت جبيني على حافتها كما كنت أفعل وأنا طفلة. مشيت في الزقاق الذي لم يتغيّر منذ ربع قرن. لم أكن أنظر حولي، كنت أحدّق بتحدٍّ وشموخ للذي ينتظرني.

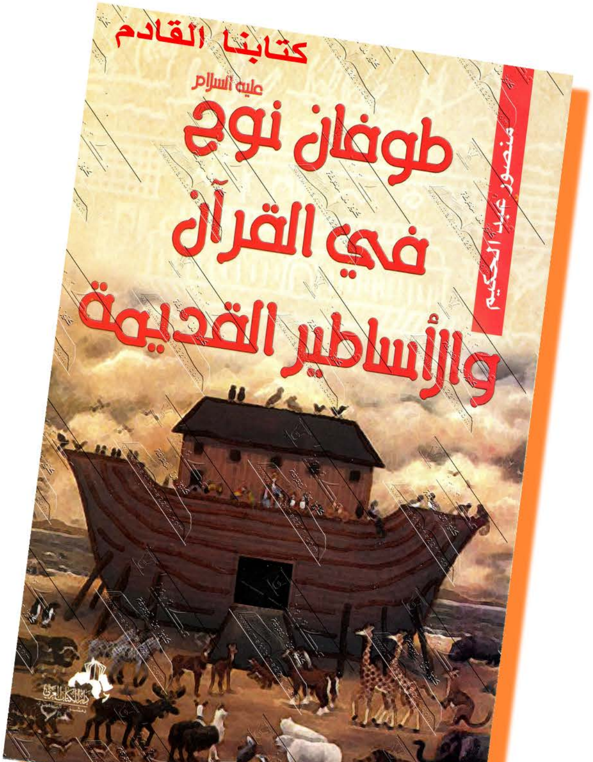

تنسيق: علامة تعجب
www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

ضَجيجُ الجَسد

قصص

هيفاء بيطار

• كاتبة من سورية

صدر أيضاً للروائية هيفاء بيطار

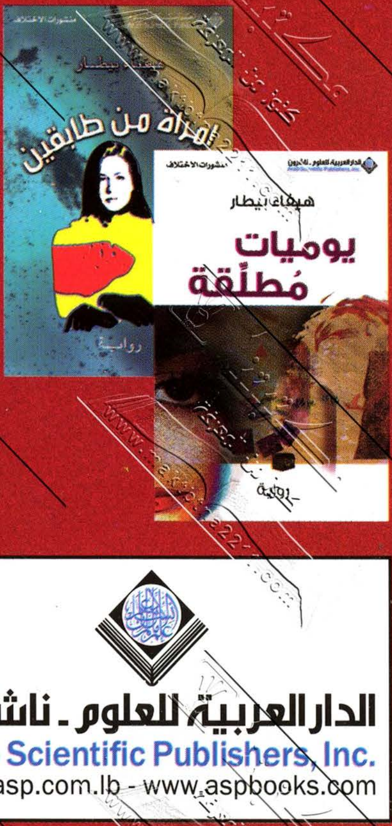

أدب هيفاء بيطار عذب، معذب، ينفذ برهافة وحدّة إلى صميم الحياة العربية والإنسانية من وجهة نظر جريئة ومقتدرة. كتابة جديدة، رهيفة تعبر عن معاناة الأنثى العربية بصدق نادر وأداء جميل، تخرج فيه الهموم من محدوديتها لتصبح معبرة عن الإنسان رجلاً كان أو امرأة في كل زمان ومكان. كتابة ذكية لاقطة لأدق الخلجات التي يصعب على كل أداة الإمساك بها. تكتب هيفاء بيطار في تلك المساحة الواقعة بين الظل والأصل، بين الصوت والصدى ومن خلال تأملها لعلاقات الرجل والمرأة تلوح أسيّة شجية، وأيضاً سخرية حزينة.

تحتوي رؤية بالغة العذوبة لأشواق الإنسان البسيطة التي يمكن أن يدمرها سوء الفهم وما يتصل بالمصائر البشرية من بهتان.

لا أظن أنني قرأت أعمالاً لأدبية تصور بجرأة وصدق دخائل الأنثى العربية الآن كما قرأت في أدب هيفاء بيطار. ذلك الصوت الروائي القوي الذي ينبعث من اللاذقية ليبلغ شتى الآفاق. … في كل زمان ومكان لصدقه وجرأته …

جمال الغيطاني

S.R. 16
مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
ريال

Wed.
23/10/2013

ISBN 9953-29-140-3
9789953291406

منشورات الاختلاف
14 شارع جلول مشدل
الجزائر العاصمة
البريد الإلكتروني:
revueikhtilef@hotmail.com

الدار العربية للعلوم ـ ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

www.neelwafurat.com نيل وفرات.كوم
جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت